



31.12.2015

غسان کفایتی


عام لیس لنا

قصص قصيرة

غسان كنفاني

عالم ليس لنا

Twitter: @ketab_n

 منشورات الرمال



مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

جميع الحقوق محفوظة © السيدة آني كنفاني

دار منشورات الرمال

قبرص

www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013

الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-95-2

نشرت هذه الرواية في طبعتها الأولى سنة 1965

صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني

تصميم الغلاف ميذا فريجي مقدسي

الخطاط: شوقي يوسف

الغلاف لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍّ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أُجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.
أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب
مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني.
في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات
عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته
ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين
لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ
إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة،
واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله
التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

إلى فايز، إلى لميس، إلى كل الصغار
الذين نطمح بعالم لهم.

غ.ك.

المحتويات

٩	جدران من الحديد
١٩	الصقر
٣١	كفر المنجم
٤١	ذراعه وكفه وأصابعه
٥١	عشرة أمتار فقط
٦١	المنزلق
٦٩	علبة زجاج واحدة
٨٥	عطش الأفعى
٩٧	لو كنت حصاناً
١٠٩	نصف العالم
١٢١	الشاطئ
١٣١	رسالة من مسعود
١٤١	جحش
١٥٥	رأس الأسد الحجري
١٧٣	العروس

Twitter: @ketab_n

جدران من الحديد

لم يكن ليدور بخلد أي منا أن تلك الرزمة المربعة التي تلقاها حسان الصغير، من عم بعيد صباح يوم عيد ميلاده كانت تحتوي على قفص صغير في داخله عصفور حقيقي.. وحتى قبل أن يمزق حسان ورق الرزمة المثقب كنا نسمع، ونحن متعلقون حوله، خفقات أجنحة تصطفق بتردد وزقزقات مكبوتة. إلا أننا لم نكن لنصدق بأن العصفور سيكون حقيقياً.. فماذا يمكن أن يفعل طفل صغير بعصفور حقيقي؟

وفي لحظات، تمزقت الورقة الملونة ورمى حسان بنفسه فوق القفص وضمه بإحكام بين ذراعيه وصدره ثم هتف بصوت مستثار: - إنه حسون..

ولم يكن قد تيسر لنا، بعد، أن نرى القفص والحسون بوضوح، ذلك أن حسان كان مستثاراً وكان خداه قد توردا وأخذت عيناه تلتمعان فيما كان يدور في أرجاء الغرفة دون أن يعرف ماذا يتعين

عليه أن يفعل.. ولكنه، بعد لحظات، سمح لنا بأن نلقي نظرة على الطائر الحبيس فيما كان يحتفظ بحلقة القفص في كف محكمة الإغلاق..

كان القفص الخشبي الصغير دون طلاء، وكانت قاعدته قد فرشت بقطعة زجاج صقيلة وامتدت قسبة تصل بين الجدارين الأكثر ابتعاداً، وفي ركنين متجاورين نُبت وعاء الحب ووعاء الماء، وكان سقف القفص قد جعل كالهرم وبدأت أسياخ الحديد جديدة ومتقنة النصب.. وفي قمة القفص تعلق الحسون المذعور بساقيه الرفيعتين فيما كان يرجف نافضاً رأسه بعنف، محدقاً إلينا بعينين صغيرتين غارقتين في السواد الداكن المحيط بهما متوقدتين بالتماع حاد.. وكانت مقدمة رأسه تصطبغ بلون قرمزي ملتهب فتعطي وجهه الدقيق سمة من سمات العنف العاجز الحزين، كان وجهاً مسحوقاً، فيه الشيء الكثير من البطولة.. وطوال تلك اللحظات القصيرة لم يكف الحسون عن التواثب بين جدران القفص وقمته، وفي كل مرة كان يحط بنفس العنف والضراوة، مدخلاً منقاره الأصفر الحاد بين الأسياخ مفتشاً بجنون عن نافذة تتسع لخروجه.. وكان يبدو، بسبب البقع الحمراء والسوداء التي نقشت رأسه، غاضباً كأعنف ما يكون الغضب، حزيناً حتى ليكاد يبكي.. وإنه، بجسمه

الصغير المتحفز وقبضتيه المشدودتين وعينيه البراقتين الغاضبتين،
يعقد العزم على شيء رهيب..

- لماذا لا يكف عن الطيران؟

- إنه خائف..

- ممن؟

- منك..

وأخذ حسان يحدق مهموماً إلى الحسون محاولاً أن يكشف
بنفسه سبب خوف الطائر المذعور منه، ولحظت أن وجهه قد
تمسح بشيء من الندم المحير الذي ينتاب طفلاً لا يعرف كيف
يجبر الأشياء على التعاطف معه، وفي نفس تلك اللحظة قال أخي
الأكبر من وراء كتفي:

- كلا، إنه ليس خائفاً منك، الحسون لا يخاف..

- لماذا، إذن، لا يكف عن الطيران؟

- إنه يتعرف إلى بيته.. ألسنت ترى؟ انظر إليه كيف يشم

الأسياخ باعتناء.. يريد أن يعرف أين يعيش...

ونظرنا، معاً، إلى الحسون المتنقل، بلا هواده، بين الجدران

المسيخة وبدا لنا، حقاً، أنه يتعرف إلى الأشياء.. ولكن حسان لم

يكن قد ارتوى، بعد، من الأجوبة:

- ولكنه كان في القفص قبل أن يأتي إلى هنا... لماذا لم يتعرف إليه قبل الآن؟

- يبدو أن عمك قد اشتراه أو اصطاده منذ أيام قليلة، فهو جديد على القفص.. إن ذلك يتضح من سرعة حركاته..

وعدنا نتطلع إلى الحسون الصغير وهو يرتد من جدار حديد إلى جدار حديد آخر.. فيما تابع أخي الأكبر بنفس النغمة الهادئة:

- يحتاج الحسون إلى شهرين أو ثلاثة شهور كي يعتاد الحياة في بيته الجديد.. وطوال ذلك الوقت يدأب على دراسته والتعرف إليه محاولاً، في الوقت ذاته، أن يجد ثغرة للهرب..

وعقد حسان كفيه الصغيرتين وراء ظهره وأنشأ يحدق من جديد إلى الطائر الرمادي المخضب باحمرار دموي:

- وسوف يظل كذلك طوال ثلاثة شهور؟
- أجل..

- ولن يغني أبداً في هذه الشهور الثلاثة؟
- لا، سوف يزقزق، ولكنه لن يغني..

- وبعد ثلاثة شهور؟
- ربما..

- وفي الليل.. هل سينام مثلنا؟

- سيقف، ولكن عينيه سوف تبقيان مفتوحتين لتراقبا كل شيء..
وكان أخي يعرف بأن أسئلة حسان لن تنتهي، ولذلك فقد غادر
الغرفة دون أن يكمل الاستماع. وكنت أعرف، أنا بدوري، أن حسان لن
يتركني أتمتع بالنوم في تلك الليلة، إذ إنه سيواصل الاطمئنان على
عصفوره كلما تحرك العصفور أو كلما تحرك في نومه. وطوال الأيام
الخمسة التالية ملأ الحسون حياة حسان بتواصل؛ وكان قد استدعى
عدداً من رفاقه لمشاهدة الطائر الذي يتوقف لحظة عن الطيران من
أجل أن يشم أسياخ القفص ويتعرف إلى منافذه وأركانه. وفي كل مرة
كان حسان يكرر لأصدقائه ما سمعه من أخيه. وكما يفعل كل طفل،
فقد أعطاه من خياله شخصية وسلوكاً.. إلا إنه بقي غير مقتنع تماماً
بأن الطائر المذعور إنما يتعرف إلى بيته الجديد.. وأكثر من مرة انتهز
الفرصة ليعبر عن تلك الشكوك لي، ذلك أنه لم يكن يجرؤ على نقل
تلك الشكوك والهواجس لأخيه الأكبر.. وفي مرة سألتني:

- طيب، لو فتحت باب القفص بعد ثلاثة أشهر وتركت الحسون

يطير فهل يعود إلى القفص؟

ولكنني لم أكن لأستطيع أن أجيب، فأنا لا أعلم شيئاً عن حيوات
الطيور وعاداتها ووعدها حسان أن أسأل أخاه الأكبر وأنقل الجواب
إليه، وحين قلت ذلك لأخي الأكبر انتهرني:

- لا تكن غيبياً.. إنه يتعرف إلى القفص فقط ليطبق العيش فيه ولكنه لن يهتم بذلك كثيراً إذا أتاحت له حياة غير مسيخة...
ولم أقل ذلك لحسان، فمن العبث أن نمضي بالقصة إلى أبعد مما ترتسم في رأسه الصغير، فليفهم الأمر كما يشاء فذلك أدعى لارتياحه وارتياحنا. وكان أخي الأكبر يرى نفس الرأي وإن كان ما يزال يعتقد أنه من السخف بالأساس، أن يهدى الطفل الصغير عصفوراً حقيقياً.. إن ذلك حري بتبهيث الجوانب الأخرى من حياة الطفل..
- انظر! لقد ترك كل ألعابه وكل حيوانات المطاط والصوف والقماش.. مليون عصفور من القماش والبلاستيك أضحت الآن أقل من أن تعوض ذلك الحسون اللعين.. ماذا سماه؟

- حسون..

- ماذا!؟

- حسون! لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يسمى الحسون غير حسون..

وفي اليوم التالي قال لي حسان أنه يريد نقوداً ليشتري قفصاً أكبر للحسون. وكنت - من ناحيتي - أشعر بأن القفص الحالي أصغر من أن يتسع لطيرانه الغضوب الدائب، إلا إن القفص الجديد لم يخفف من حدة الطيران ذاك، على الرغم من أنه أعطى الحسون

مدى أبعد في هز الجناحين الصغيرين النضرين. وكان حسان سعيداً بذلك التغيير، وكانت سعادته أكبر حين قلت له بأن عليه نقل العصفور بنفسه من القفص القديم إلى الجديد، وشرحت له بأن عليه أن يحتوي الطائر الصغير بين كفيه دون أن يضغط كثيراً خوفاً أن يقتله ودون أن يرخي الراحتين كثيراً خوفاً أن يهرب..

- وإذا عضني؟

- معنى ذلك أنك ضغطت عليه كثيراً.. ارخ راحتك..

- وإذا هرب؟

- تكون قد أرخيت راحتك كثيراً..

ونظر إليّ دون أن يفهم، ولكنه كان على استعداد لينقل الطائر بأي شكل.. بل إنه فعل ذلك بأفضل مما تصورت. ولم يشك حين أطبق الحسون بمنقاره فوق جلد راحته.. وطوال الأيام التالية تحدث عن ذلك كثيراً، وصار يعتقد أن سعادة الحسون قد ازدادت في القفص الجديد الواسع.. إلا إن أخي الأكبر الذي استمع بصبر إلى ذلك كله، ونحن على طاولة الغداء، كان له رأي آخر قاله دون أن يرفع رأسه عن الطعام.

- لقد ارتكبت خطأً في شراء القفص الجديد..

- لماذا؟

- خسرت شهراً! على الحسون الآن أن يبدأ من جديد بالتعرف إلى بيته الجديد، وسوف يستغرق ذلك وقتاً، خصوصاً وأن القفص الجديد كبير جداً..

ومن طرف عينيّ شاهدت حسان ينظر حواليه بأسى، ثم حاول أن يستأنف الأكل إلا إنه عاد فوضع الملعقة إلى جانب الصحن وأخذ ينظر إليّ.. ويبدو أن أخي الأكبر لاحظ ذلك فحاول أن يعيد الأمر إلى نصابه دون أن يغيّر في لهجته.

- من يدري، فقد يروقه البيت الجديد فيتعرف إليه بأسرع مما نتصور. إن حسونك خبير بالبيوت..

وقبل أن يتم ما كان يريد قوله تلاقى أبصارنا، وكان حسان ينظر إليّ دون أن يفهم، طامعاً، في أن تغيّنه تعابير وجهي، وفي اللحظة التالية بلع أخي الكبير لقمته، ومضى بفكرته إلى مداها:

- إن حسونك خبير بالبيوت! لقد عاش شهرين في قفص من الخيزران عند عمّك، ثم نقله إلى القفص الخشبي الذي اشتراه خصيصاً ليرسله لك.. وها أنت ذا تشتري له قفصاً جديداً بعد شهر.. وقبل أن يكمل زحزح حسان كرسيه واستدار عائداً إلى غرفته دون أن ينبس بكلمة. ولكنه، قبل أن يجتازني، أوقفته وأمسكت به من ذراعيه فطأ رأسه ملصقاً ذقنه بصدرة ورغم ذلك فقد

استطعت أن أرى رموشه مبتلة بالدموع التي حاول طوال الغداء أن يبقوها في رأسه. وقبل أن ينفجر قربت فمي من إذنه وسألته هامساً:
- ما بك؟

ولكنه لم يكن ليستطيع أن يتكلم، بعد، فخليت ذراعيه وتركته يعدو إلى غرفته، وتبعته بعد لحظة فرأيته جاثياً إلى جانب الحسون المنتفض من جدار إلى جدار. وحين التفت إليّ بدا لي أنه قد حَضَرَ ما يريد قوله، فرماه بوجهي بصوت راجف حاد:

- منذ ثلاثة شهور لم يكف عن الطيران.. وأمامه ثلاثة شهور أخرى.

وخيل إليّ بأن الجناحين الغضين لن يستطيعا حمل الطير الصغير شهوراً ثلاثة أخرى. وكنت على وشك أن أقترح على حسان أن يفتح باب القفص ويخلي الطائر، إلا إنني عدت فسكت منتظراً منه أن يصل إلى ذلك دون مساعدتي.. ولكن شيئاً غريباً حصل في اللحظة التالية.. وقف الحسون فجأة ممسكاً بقبضتيه الدقيقتين القصبة الرفيعة محققاً إلينا بعينين حادتي الغضب لاهثاً لاهثاً قصيراً متتابعاً دافعاً صدره الأبيض، كالزبد، إلى الأمام. وطوال اللحظات التالية لم يتحرك وواصل التحديق إلينا. وقد كنت أتوقع بالضبط كل الذي سيحدث: وقف حسان جذلاً وقد احمر وجهه ثم أنشأ ينظر

إليّ بعينيه الواسعتين، فابتسمت فيما امتلاً وجهه بضحكة نادرة..
وكالسهم انطلق إلى غرفة الطعام وسمعت صراخه يختلط بخفقات
خطواته الصغيرة ويرتد صداه على جدران الممر:
- لقد وقف.. كف حسون عن الطيران..

ومن جديد سمعت صوت خطواته تتابع عائداً، وشهدته يندفع
عبر الباب ويركع إلى جانب القفص صافقاً كفيه فوق فخذه
مخضوضاً بالفرح. وفي اللحظة التالية وصل أخي الكبير فوقف
وراءه هنيهة دون أي اهتمام، ثم انحنى فجأة متكئاً بكفيه على
ركبتيه وهدق إلى الحسون الواقف بهدوء فوق القصبة.. فيما مضى
حسان يكرّر بلا توقف:

- ألا ترى؟ لقد كف حسون عن الطيران...

وهزّ أخي الكبير رأسه ببطء.. وواصل التحديق إلى الطير
الصغير عاقداً حاجبيه بإمعان، ثم انفكت أسنانه عن جملة واحدة:
- إنه يحتضر.

بيروت - ١٩٦٣

الصقر

كان عالماً مرتباً بعناية فائقة: كل حسب راتبه. وهذا هو بالذات ما جعل علاقتنا بحارسي البناء الذي كنا نشغله، نحن مهندسي شركة الإنشاءات الحديثة، علاقة إلقاء سلام، ليس إلا..

- مساك الله بالخير يا جدعان..

ويأتي الجواب عن العلية الخشبية بإيجاز:

- مساك الله بالخير يا عبدالله...

وعبدالله هذا هو كلنا، كل واحد منا كان يسميه عبدالله.. لم يكن جدعان يهتم بحفظ أسمائنا.. كلنا عنده عبدالله، وكفى الله المؤمنين عناء حفظ أسماء العجم!

كانت غرفة الحارسين تقع في نهاية الممر الذي يؤدي إلى البناء الجديد المخصص لنا، والحقيقة إنه كان بناءً رائعاً، على عكس البناء الذي كنا نسكنه سابقاً، ذلك البناء القميء الذي كان يعجج

بالفئران والجيران بشكل غير محتمل..

هنا، في هذا البناء الجديد، كنا نعيش منعزلين تماماً عن كل شيء، ومع مرور الأيام كدنا نحسّ بأننا معزولون - ليس عن الحي الذي كنا نسكن فيه فحسب، بل عن المدينة بأكملها.. ولولا أن الحارسين كانا يودعانا ويستقبلانا كلما خرجنا أو دخلنا إلى البناء لكنا شعرنا فعلاً بأننا موضوعون في قفص أنيق خصصناه لأنفسنا.

والحارسان ذاك بدويان قدما من الصحراء: جدعان كان الحارس الليلي، ورغم ذلك فقد كان يقضي بعض ساعات النهار متجولاً حول المكان لأنه ليس ثمة ما يفعله غير ذلك، أما الحارس النهاري فاسمه مبارك، وهو رجل ضخم في الأربعين من عمره.. شديد السمرة، محني الظهر يمشي وكأنه قام لتوه من جلسة طويلة. كان يلبس البزة الرسمية المخصصة للحراس، وهي بزة كحلية ذات أزرار نحاسية كبيرة. كان ينام داخل الغرفة الأنيقة، ويغطي نفسه بالشرشف البيضاء التي كانت تستبدل مرة كل أسبوع..

وكنا نحس - رغم بعدنا عن عالمي مبارك وجدعان - بأن بين الرجلين عداوة مستورة أو كراهية، ثم ما لبثنا أن لاحظنا بأن جدعان لم يلبس قط البزة الرسمية، وأنه كان يلبس دائماً عباءة خشنة فوق

قلمبار متسخ كان، في يوم مضى، ذا لون أبيض.. ولاحظنا أيضاً أن جدعان على عكس مبارك - كان يرفض النوم داخل الحجرة الأنيقة وأنه صنع لنفسه سريراً عجيبياً من ثلاثة ألواح خشبية انتزعها من صندوق كبير ثم رفعها على ست قوائم وفرش فوقها قطعة من جلد ماعز أسود. وكنا نشاهده في آخر الليل يطوي عباءته الخشنة ويتوسدها ويغفو دون غطاء. لم نره قط داخل الغرفة الأنيقة أو داخل البزة الكحلية ذات الأزوار الصفراء الكبيرة..

أغلب الظن، هكذا كنا نعتقد، أن جدعان يحتقر، بكيفية ما، زميله مبارك.. وأن مبارك، بدوره، يشعر بالخجل أمام جدعان حينما كان يقيسه بعينيه الصغيرتين الحادثين وهو هناك داخل تلك البزة الرسمية العجيبة...

وتأكد هذا الاعتقاد حينما استوقفني مبارك، ذات يوم، وطلب من أن أكتب له رسالة شكوى إلى رئاسة الشركة:

- شكوى ضد من يا مبارك..؟

سألت سؤالي باللهجة الجديرة بكلام يوجهه مهندس إلى حارس له راتب يقل ست مرات عن راتبه، وأتاني الجواب:

- ضد جدعان.. إنه يرفض تنظيف المراحيض حينما يأتي دوره..

- لماذا؟

- لست أدري، كان يكلف خادمكم بالعمل ويعطيه ثلاث روبيات..

- وماذا يهمك أنت طالما أن المرحاض ينظف في ميعاده؟

اتكأ على الحائط، كان غاضباً، ومضى يشرح الأمر بعصبية:

- اسمع يا أستاذ.. منذ أسبوع رفض خادمكم أن يقوم بالعمل..

أتدري ماذا فعل؟ أقول لك، طلب مني أنا أن أنظف المراحيض مقابل خمس روبيات..

- ولماذا لا يقوم جدعان نفسه بهذا العمل؟ أليس هذا جزءاً

من وظيفته؟

هز رأسه، ثم نفخ ذراعيه فوق فخذه:

- نعم.. نعم.. ولكن أتدري لماذا لا يقبل ذلك؟ أقول لك، إنه لم

يأت إلى هنا ليشتغل..

- إذن ماذا أتى يفعل هنا؟

عاد يهز رأسه، كان محتاراً بعض الشيء فمضى يقول بصوت

منخفض:

- لا أعرف.. أقول لك.. ولكنني أعتقد أنه هرب من أهله..

- أهله؟ إنه شيخ مسن، لماذا يهرب من أهله؟

جلس مبارك فوق عليّة جدعان، وحدث إليّ بعينين شامتتين

ثم قال:

- حدث ذلك منذ زمان بعيد.. كان يريد أن يتزوج بنتاً لها شعر أحمر، شاهدها مرة قرب مضارب أهله مع رجال كانوا قد أتوا لاصطياد الغزلان..
قلت مشدوهاً:

- جدعان؟ جدعان كان عاشقاً؟

- نعم، كان شيخهم قد كلفه بمرافقة الرجال والمرأة لمطاردة الغزلان.. أتعرف ماذا؟ أقول لك، أحبها وحينما غادرت صار كالمجنون.. تناول مبارك غصناً صغيراً وأخذ يحفر به الأرض دون غاية ثم قال:

- أنت تعلم، هناك يحكون أشياء كثيرة، يقولون، أقول لك، إنها هي الأخرى أحبته..

- أحبته؟ لماذا لم يتزوجا؟

- أية امرأة لها شعر أحمر تقبل أن تتزوج بدويًا؟ كان رجلاً طيباً،

ولكن لا فائدة.. أتدري؟ أقول لك، لقد طلق زوجته!

قمت، ولكنني سألت قبل أن أمشي:

- لماذا يشتغل هنا، إذن؟

- قال إنه لا يشتغل هنا.. قال أنه إنما يجلس هنا فقط، كما

يجلس الإنسان في أي مكان من العالم.. قال، أقول لك، أنه تعب كثيراً، وهنا يستطيع الإنسان أن يأكل وهو جالس.. قال أيضاً، أقول لك، أنه يريد أن يموت هنا بهدوء ولا يريد أن يعود إلى أهله.. إنه مجنون، أقول، هل تكتب الشكوى؟

مشيت إلى الباب، دون أن أجيبه، ثم صعدت الدرج إلى غرفتي. لم يكن الجلوس إلى جدعان أمراً سهلاً.. ورغم ذلك فقد حاولت مراراً دون بأس، وكنت في كل مرة أقف عاجزاً أمام عينيه القاسيتين الغائرتين وهو يسحب فوقهما سد الصمت، وحينما استطعت أخيراً أن أجلس إلى جانبه فوق عليته الخشبية الواطئة لم أكن في الواقع أقصد إلى ذلك قصداً.. لقد وصلت متأخراً وكنت قد نسيت مفاتيح غرفتي مع صديق فجلست أنتظر..

- كان علي أن أنام باكراً الليلة، غداً سوف نذهب للصيد..
- صيد؟

سأل جدعان السؤال ببرود فيما هو منهمك بلف تبغ داخل الورقة الرقيقة.

- نعم.. صيد غزلان.

- كيف تصطادون الغزلان؟

- كالعادة.. بالسيارة.

هزّ رأسه، ومضى يلف التبغ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:
- تلحقون الغزال المسكين بالسيارة.. تفصلونه عن قطيعه،
تطاردونه ساعات حتى يتعب فيقف، تنزلون من السيارة ثم
تمسكونه كأنه دجاجة..

أشعل اللقافة وسحب نفساً عميقاً منها ثم نظر مباشرة في
عيني، وقال بصلافة:

- عيب!

أحسست، فجأة، كما لو أن جدعاً تعمد إهانتني، فاندفعت:

- عيب؟ كيف يصطاد الناس الغزلان؟ بالبندقية؟

- كلا، عيب..

- إذن؟

أخذ نفساً آخر، وغسلني بتلك النظرة القاسية عبر غيمة من
دخانه الثقيل وقال بهدوء:

- يجب ألا تصطاد غزلاً أبداً يا عبدالله... لا بالسيارة ولا

بالبندقية...

- لماذا؟

نظر إلي فجأة وكأن سؤالي جرحه، ثم هز اللقافة بين أصبعيه
في وجهي والتمعت عيناه:

- هل جربت مرة أن تجلس في الصحراء فيأتي الغزال بنفسه إليك، يحك رأسه فوق ذراعك ويمد فمه إلى رقبتك، يدور حوالياً، ينظر إليك بعينيه الواسعتين، ثم يمضي.. أجربت ذلك..؟

- كلا.. هل جربته أنت؟

وكانه لم يستمع إلى سؤالهم ساخراً:

- وتحكي عن الصيد.

لم أعد أطيق كبرياءه فانفجرت:

- أنت ألم تكن صياداً؟

- نعم، منذ زمان بعيد يا عبدالله، منذ زمان بعيد!

ومضيت شوطاً أبعد:

- كيف كنت تصطاد الغزلان؟

نظر إلى الأرض وفرك التراب بقدمه العارية ثم همس وكأنه

يخجل من رفع صوته:

- بالصقر..

- بالصقر؟

- نعم! كلهم يفعلون ذلك.. ألم تسمع أبداً بالصقر؟

نهض من مكانه، وسار بطيئاً حتى لم أعد أتبين سوى وهج

اللفافة، ثم عاد فجلس إلى جانبي ومضى محطماً سد الصمت:

- حينما تشاهد غزالاً ارفع كيس الجلد عن عيني الصقر
وسوف يطير كالبرق وينقض كالصاعقة فardاً جناحيه فوق عيني
الغزال فيقف.

قلت شامتاً:

- ثم تمسكه كأنه دجاجة؟

هز رأسه بالم وكرر:

- نعم. تمسكه كأنه دجاجة.. اسمع يا عبدالله..

استدار فواجهني، ثم رفع ساقيه وتربع فوق العلية ووضع كفه
الخشنة فوق ركبتي، وكان الصوت، عبر تلك الظلمة، يأتي من بعيد:
- اسمع يا عبدالله. قبل عشرين سنة كنت صياد غزلان.. كان
لدي صقر رائع اسمه نار، كان أحسن صقر سمعت عنه القبيلة طوال
سنوات.. حينما يطير فجناحاه يحجبان ضوء الشمس، وكان يطوي
جناحيه ويسقط كالحجر، وكان الربيع يقولون: «نار جدعان أحرق
الغزلان..».

خيم الصمت، وخيل إلي أنه قد كف عن الحديث - ورغم
الظلمة فإنني كنت على يقين بأن وجهه يكتسي، هذه اللحظة،
بتلك السعادة المجهولة التي يكتسي بها وجه إنسان يحكي عن
أشياء أحبها، ثم فقدتها منذ زمن بعيد، إلا إن الصوت عاد موهنأً يكاد

لا يسمع:

- قبل عشرين سنة.. رفعت كيس الجلد عن عيني نار فانطلق
محلّقاً.. لم يكن في المدى إلا غزال واحد، وكنت أستطيع أن أتبين
لونه عن بعد، إنه لون أحمر أقرب إلى البني، كلا - إنه لون غزال..
أنت لم ترّ ذلك اللون أبداً، إنه لون غزال، لون لا يمكن أن يكون إلا
لون غزال، لقد حلق نار عالياً عالياً، ثم سقط ضاماً جناحيه كالحجر..
وحينما صار على علو قليل من الغزال فرد جناحيه.. وجمد في
الهواء لمدى هنيهة، ثم هوى على جنبه منفسحاً كالورقة حتى كاد
يلامس الأرض وعاد فحلق من جديد وطار عالياً بينما وقف الغزال
كأنه تسمر.. كنت أحسب أن ناراً إنما يستعرض جبروته أمام الحيوان
المسكين كما يفعل كل الأقوياء، ولكنه قام بنفس ذلك الاستعراض
أكثر من ست مرات، بعنف عجيب، ثم عاد فحلق من جديد وعاد
إلي.. لقد رأيته يفرد جناحيه الهائلين، ويحط ببطء فخور فوق
خشبته المغروزة في الرمل ويغمض عينيه.. فيما جاء الغزال وراءه
على قوائمه الدقيقة كأنه المضبوع.

أمسكت بجذعان من كتفه، وأيقظته، ولقد بدا لي وكأنه كان

نائماً، وسألته:

- ثم ماذا؟

- عدت إلى أهلي.. لقد اعتقدت أول الأمر أن ناراً لا يريد أن يصطاد في ذلك اليوم.. أنت تعرف، أن للصقور أخلاقها الخاصة، ولكن الذي حدث كان أفظع من ذلك.. لم يغادر نار خشبته بعدها أبداً، بقي واقفاً بصدرة الفخور ومنقاره المعقوف في ظل الغزال الذي لازمه.. لم يأكل طوال أسبوع كامل رغم أنني نزعت كيس الجلد عن عينيه، بل إنه لم ينظر إلى أية قطعة لحم وضعتها أمامه، لم ينظر حتى إلى الغزال الذي بقي واقفاً إلى جانبه جامداً، يحدق إليه بصمت.. وكنت كلما آتي لأجرب إطعام نار أفاجاً بالغزال الصغير يحوم حوالي كالطفل، يفرك أنفه الوردي فوق ظاهر كفي، يمد فمه إلى عنقي، يحك رأسه بذراعي.. ثم يدور، ويقف إلى جانب الوتد الخشبي بهدوء.

نهض جدعان، وسار حول العلية الخشبية مخرجاً علبته الصدئة، بادئاً لف تبغته من جديد.. لم أكن أتبين ملامحه في تلك الظلمة، ولكنني سمعت صوته مرة أخرى، من كهف بعيد.

- صحت ذات يوم فوجدت ناراً ملقى إلى جانب خشبته.. كان صدره عارياً وهزليلاً، وكانت عيناه مغلقتين، لم أجد الغزال، كان قد مضى، أغلب الظن، خلال الليل وبعد أن قضى نار..
قمت من مكاني ووقفت أمامه، كان قد انتهى من لف تبغته

فأشعلت عود الثقاب وأنا أسأل:

- ترى أين ذهب الغزال؟

وعلى الضوء الشاحب لعود الثقاب رأيت وجه كما كان دائماً:

هزيراً قاسياً بارداً، وتحركت شفتاه:

- ذهب ليموت عند أهله.. الغزلان تحب أن تموت عند أهلها..

الصقور لا يهتمها أين تموت!

بيروت، ١٩٦١

كفر المنجم

تذكرت في نفس اللحظة التي ولجت بها الباب، أنني أكره هذا المقهى. وأني كنت أعتزم منذ الصباح، أن أجد لنفسي مكاناً آخر، أمضي فيه ساعة أو ساعتين.. إلا إنني خطوت إلى الداخل، مثلما كنت أفعل كل يوم، واتجهت إلى الركن حيث أستطيع أن أجلس وظهري إلى الحائط.. وفي اللحظة التالية نسيت كل شيء عن المقهى وعن كراهيتي له، وانتابني ندم، لأنني لم أشتري صحيفة، ولاحقت بعيني فتاة تلبس رداءً ضيقاً، وتساءلت فيما إذا كان كلامي، هذا الصباح، قد آذى «مي».. وكأن ذلك كله يحدث الآن مثلما حدث كل يوم.. ومثل كل يوم، دفع «الغرسون» فنجان القهوة أمامي قبل أن أطلبه، فاندلق السائل الداكن ولوث الصحن، مد يده ليسحبه فقلت له:

- إن ذلك لا يهم، وإنه لا ضرورة لتغيير الصحن المتسخ، لأن حياتنا كلها كذلك، ومثل كل يوم، ابتسم دون أن يفهم.

خارج النافذة الزجاجية المحطمة، كان العالم يتكون بضجيج كل يوم.. ولقد حدث الأمر فجأة، وكان غريباً أن يحدث مثل ذلك الوضوح وتلك الحدة: كنت أرفع ساقي لأضعها فوق الساق الأخرى حين انتابني، فجأة، شعور ناصع البياض، حاد الأطراف، بأن أمراً ما سوف يحدث.. وبأن هذا الأمر سوف يحدث لي أنا بالذات بعد قليل.. وكان ذلك الشعور غريباً ومفاجئاً، حتى إنني تركت ساقي معلقة في الهواء هنيهة، وبصوت خفيض قلت لنفسي أنني واهم منافق، إلا إن الشعور لبث متكلباً في صدري وعيني، وشعرت بأن هذا إنما يحدث لي لأول مرة في حياتي كلها، ورغم ذلك فقد واصلت تيقظي وحذري ورفضت بهدوء، أن أنصاع لهذا الشعور المفاجئ.. مددت يدي إلى فنجان القهوة ورفعته محاولاً أن أفعل ذلك مثلما كنت أفعله كل يوم.. إلا إن يدي تصلبت، كأنما بفعل قوة غير مرئية، في منتصف الطريق حين ارتسم في باب المقهى أمام عيني، صديقي القديم إبراهيم..

كان واقفاً يجيل بصره في أنحاء المقهى، كأنما يبحث عن إنسان ما، وقلت لنفسي، إن غياب خمس عشرة سنة لم يغيره كثيراً.. فحركاته ما تزال تلك التي أعرفها.. وفي اللحظة التالية تذكرت - بوهن - أن إبراهيم قد مات منذ خمس عشرة سنة، وأن هذا لا

بد أن يكون رجلاً آخر يشبهه تمام الشبه، ولكنه رأني فهز رأسه هزة خفيفة، وسار بين الموائد معتذراً بهدوء، لأولئك الذين طلب منهم أن يحركوا مقاعدهم ليسمحوا لجسده الضخم بالمرور، وحين وصل إلى طاولتي، سحب كرسيّاً وجلس وهو يتنهد، دون أن يمد يده لمصافحتي، ثم تلفت حواليه وطلب فنجان قهوة، وزقرقت مفاتيحه وهو يدسها في جيبيه، وسألني «كيفك؟» إلا إنني لم أجب.. وفجأة بدا الأمر طبيعياً جداً، فأخذت أرشف قهوتي وأنا أنظر، عبر النافذة المحطمة، إلى الطريق..



كنت أنا وإبراهيم زميلين في صف الشهادة الثانوية، وكان إبراهيم شاباً في غاية الحساسية، بالرغم من أنه كان يحب التظاهر بعدم المبالاة، مثلما هو الآن، وقد كان مبرزاً ذكياً، حتى إن مدير مدرستنا كان، في خطباته الأسبوعية، يشير إليه كنموذج مثالي لطالب في غاية الكمال.. وكنا نعتبر نجاح إبراهيم البارز في الشهادة بديهية لا تناقش، وكان ثمة اعتراف ضمني، بأن المتفوق من الطلاب، يجب أن يعتبر نفسه ثانياً إذا ما فكر بإبراهيم.. إلا إن

المفاجأة أتت صاعقة حين انتهت الفحوص، ورسب.

أذكر جيداً، الآن، أن إبراهيم قد اختفى في اليوم التالي... شاهدناه آخر مرة واقفاً أمام لوحة الأسماء، إلا إن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه... وما من شك في أنه قرأ القوائم مرات طويلة بطيئة، ويداه معقودتان وراء ظهره ثم استدار دون أن ينظر إلينا، ومضى.. وفي اليوم التالي قيل لي إنه قد انتحر.. ثم نشرت الصحف أخبار انتحاره، فقالت إنه استعار زورقاً مضى به إلى عرض البحر، ثم شوهد الزورق يتأرجح فارغاً، فوق الموج، وإلى جانب الخبر نشرت صورة من صورهِ القديمة: كان شعره مفروقاً وعالياً وكان يتسم..

مد إلي علبه لفافاته فسحبت واحدة أشعلها لي: كانت ولاعته من ذهب وكذلك أزرار كميهِ. ولاحظت أن لفافاته فاخرة، وأن قماش بذلته من نوع نادر.. وبالرغم من أنه كان يراقبني وأنا أدرس ثراه، إلا إنه لم يبد أنه شعر بالهرج، وخيل إلي أنه اعتاد إعجاب الناس بأشيائه، وحين وصلت قهوته رشف رشفة طويلة بتلذذ، وامتنص شفثيه بصوت مسموع ثم سأل مرة أخرى: «كيفك». فقلت دون أن أفكر، «إنني زهقان!» هز رأسه، وقبل أن يرشف رشفة ثانية قال:

- ماذا تعرف عن الزهق؟



كان فشلاً لا يصدق ولا يحتمل، وحين قرأت الأسماء المعلقة على اللوحة ألف مرة تأكدت من شيء واحد، على الأقل، هو أنني لا أستحق الحياة.. استدرت وغادرت اللوحة ومشيت باتجاه داري: كنت أحس بالم حقيقي في كل أنحاء جسدي، كان العالم يبدو في عيني وهمياً.. فقررت من جديد أنني لا أستحق الحياة، ولكنني - أيضاً - لا أستحق الموت، وقلت لنفسي أنني يجب أن استأجر زورقاً أبحر فيه إلى عرض البحر، حيث أنقلب إلى لحم مقعد بالملح والشمس، شيئاً فشيئاً، دون أن يحس بي الأحياء، ودون أن أحسب على الأموات.

إلا إن الرجل الذي يؤجر زوارق متينة، دعاني إلى تناول فنجان قهوة.. وفيما كنا جالسين في كوخه الخشبي المهلهل، متقابلين، نرتشف قهوته الداكنة بين الشباك المقطعة، والأصداف وألواح الخشب والسلاسل، حكى لي عن حلم كان قد واصل التفكير فيه طوال خمسين سنة، إلا إن فرصة تحقيقه لم تسنح له قط.. وقد قال أنه لم يكتشف السبب إلا منذ فترة وجيزة، حين تبدى له فجأة، أن تقليب الحلم هذا على وجوهه يعرقل تحقيقه، ولا ينفذ إلا في

إبعاده. وقال بأن هذا الاكتشاف لم يفت من عضده فقر، بينه وبين نفسه، أن يجد من يحل محله..

وقام الرجل بعد برهة فأشعل النار ومضى يحضر فنجان قهوة آخر، ولقد أحسست بشيء يشبه الخدر في ذلك الجو المتعب المكون، كما خيل إلي، من هدير الموج المتصل بكل رتابته القدرية القاسية.

وحين عاد الرجل بإبريق القهوة، قال أنه سيعطيني زورقاً لو توجهت به إلى حيث يريد هو.. وبعد أن صب قهوته الداكنة في الفنجان الصغير قال: إن حلمه الأبدي المعجز جدير بأن يتحقق على يدي رجل لا يحب الحياة ولا يستحق الموت.



- ورثت هذا الكوخ الخشبي المهلهل عن صياد عجوز كنت أعرفه، ثمناً لوعده قطعته له بأن أكرم موته حين يوافيه الأجل، وورثت مع هذا الكوخ الحلم المرهق، الذي واصلت التفكير فيه أكثر من خمسين عاماً.

لقد روى لي ذلك العجوز المجرب، نبأً أكيداً عن وجود مدينة كبيرة قائمة كالقلعة وسط البحر، وكان العجوز قد رأى من أكد له

بأن تلك المدينة العجيبة تشابه المدن التي تكتب عنها قصص خرافية: إنها محفورة في صخور من ذهب، ترابها ذهب، حصاها ذهب، وكل ما فيها من ذهب، ولكنه ذهب لا يلمع وربما كان لونه غير لون الذهب الذي نعرفه، أيضاً، إلا إن هذا لا قيمة له لأنك - فور أن تغادر تلك المدينة - يتحول ذهبك إلى أصفر لماع لا يقل قيراطاً عن الذهب الذي تعرفه..

قال العجوز المجرب، إن هناك شيئاً سحرياً في الأمر، وهو شيء، واحد فقط: ما من أحد يعرف الطريق إلى تلك المدينة، إلا من يعتزم الوصول إليها حقاً.. أما إذا كان المرء خائفاً أو شكاكاً أو متردداً فإن الطريق ستلتبس عليه، وقد يضيع قبل أن يشاهد تلك المدينة ويعيش فيها.. كثير من الرجال عادوا من رحلتهم إليها قبل أن يدخلوا فيها، لأن عزمهم لم يكن كاملاً ولا أكيداً..

على أنه ليس ثمة ما هو مؤكد تماماً - قال العجوز المجرب - ذلك أن أحداً ممن ذهبوا إلى هناك لم يعد ليروي الحقيقة، وكل ما أكده هو أن من يرغب حتماً في الذهاب إلى هناك يذهب حتماً.. وإذا ما أراد، أكيداً، أن يعود من هناك عاد حتماً..



كفر المنجم.

فور أن شاهدها في الأفق، سقط اسمها في ذهني دون أن أقرأه أو أسمعه. كانت الطريق أقصر مما ظننت، وقد شاهدها عن بعد فكففت عن التجديف، وأخذت أتأملها وهي مكومة في الأفق كجبل أسود في المدى المترامي لزرقة البحر.. والواقع أنني أحسست بشيء سحري وأنا أهدق إليها.. فبالرغم من لونها الأسود القاتم فقد كانت تتوهج كشمس أسطورية، وكانت تبدو - وهي تلتمع لمساء في الأفق - كأنها زنجية مقرصة.

كان الأمر بالنسبة لي، مثل قراءة كتاب.. ففيما كنت أسوق زورقي منزلقاً فوق الأمواج الصغيرة، كانت الأفكار تتساقط في رأسي كأنها تنصب مع هدير الموج: قبل سنوات قليلة لم يكن لكفر المنجم أي وجود.. وكان البحر يمتد بعيداً إلى ما لانهاية.. الآن لا أحد يعرف فيما إذا انبثقت من قاع البحر أو سقطت من السماء. أمهي سائل بركاني متصلب، أم هي نجمة محروقة سقطت مثلما تسقط النيازك؟



فتحت كفر المنجم أبوابها فدخلتها ونقبت لنفسي في الصخرة العملاقة كهفاً جعلته بيتي ورحت أملاً أكياسى ذهباً أجده في أي مكان تمتد إليه يدي، أو تخدشه أظافري، وفي كل مرة تنسلخ عن الصخرة قشرة الذهب تنمو مكانها، بأسرع مما ترمش أهدابك، قشرة أخرى..

تبدو لك فكرة كريهة، أن يعيش المرء في بيت يشبه الكهف.. ولكن هل فكرت بكهف جدرانته من ذهب؟ إنه الشيء الوحيد الذي لم أعتده والذي ما زال يبدو لي خارقاً حتى بعد خمس عشرة سنة. نمت أول ليلة، بعيداً عن كل شيء آلافاً من الأميال المترامية في مدى معدم، تطن الوحدة في أذني مثل سهيل جواد يحتضر، ولكن توهج الجدران كان يسكت عويل الريح في صميمي.. وفجأة أحسست بأن ثمة شيئاً غريباً في الكهف، وحين قمت أتحسس الجدران انزلقت كفاي على سائل ينز من مسام الحجارة السوداء الثقيلة..

إنه سائل البصاق، تنزه الجدران كل مساء.. ولكنك ما تلبث أن تعتاده.



قمت، دفعت ثمن فنجاني وفنجانه، فلم يمانع.. نظرت إليه
مرة أخرى لمجرد أنه كان جالساً هناك بكل بساطة، ثم خرجت إلى
الشارع.

مثل كل يوم: الناس يتدافعون، والسيارات تتبارى، وشتائم بائع
الكعك: سوف أمشي شارعاً وراء شارع. وأصعد السلم وأفتح باب
غرفتي، وأخلع حذائي، ثم أنام بكامل ملابسي.. مثل كل يوم...
وفجأة حدث ذلك الشيء مرة أخرى: شعرت بسعادة مفاجئة،
وضعت كفي في جيبتي، وهززت رأسي وأنا أبتسم وأسارع خطوي:
- كلا.. إبراهيم لم يعد من كفر المنجم بعد..

بيروت، ١٩٦٣

ذراعاه وكفه وأصابعه

فتح الرجل العجوز باب الغرفة فتصاعد أزيز متعب عليل ورمى ضوء الغرفة ظله الصغير فوق حجارة الممر. كان الليل مقمراً صامتاً، وقف برهة صغيرة ليتلمس بعصاه الغليظة بداية العتبة، ثم انسل لاهتاً بخطوات قصيرة إلى حديقة جاره.

تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها غرفته العارية منذ أربع سنوات على الأقل حتى إنه كان على وشك أن ينسى كيف يتعين على المرء أن يسير دون أن يقع... ولكن الأمر لا يحتاج، الآن، إلى مزيد من الاصطبار، ربما يكون قد أمضى حياته جاهلاً تعساً، لكنه قد تعلم أخيراً درساً صغيراً واحداً، بسيطاً ولكنه أساسي للغاية: إذا أردت أن تحصل على شيء ما، فخذ به ذراعيك وكفيك وأصابعك.. وهو، على أي حال، لا يريد شيئاً كبيراً الآن.. لقد انتهى العمر ولم يعد في القلب طاقة لمزيد من النبض.. ولكنه يريد، بكل

بساطة، أن يحصل على ذلك الشيء الصغير الذي فكر به طوال أربعة أسابيع.. وإذا تصور أن أحداً من الناس سوف يمد له يد المساعدة فلسوف لن يحصل على ذلك الشيء الصغير أبداً.. إذا أرادته فعليه أن يأخذه بنفسه، بذراعيه وكفيه وأصابعه..

كانت ركبته ترتجفان كغصن مقصوف من وسطه وهو يضرب في الممر الصامت المعتم، وحين وقف بعد لحظة ليستجمع أنفاسه انفلتت من بين شفثيه جملة غاضبة: «أيها العجوز الخرف!» واكتشف في تلك اللحظة أن هذه الجملة الصغيرة تردت على لسانه طوال السنوات الأربع الفائتة دون كلل ودون توقف، ورغم طول الزمن فإنها لم تفقد شيئاً من معناها ومغزاها ولؤمها. ما زالت تبعث في عظامه الواهنة غضباً متوقداً كأنه يسمعها لأول مرة. كان خيري، ابنه، يقولها الآن، في هذه اللحظة، وهو واقف وسط الغرفة واضعاً كفيه في جيبه، محمداً إلى أبيه ببرود..

هزّ عصاه بغضب وضيّق جفنيه ليستطيع أن يرى بوضوح، ولكنه لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة، كان الغضب قد نما في صدره حتى سد حلقه: أيها العجوز الخرف! ترنّح قليلاً ثم اتكأ على جذع قريب.. عجوز خرف! ولكن ليس الآن.. لقد تعلمت أخيراً هذا الدرس الصغير المفيد: إذا أردت شيئاً فخذ به ذراعيك وكفيك

وأصابعك.. لا، لن أقف ذليلاً أمامك، يا خيرى، مرة أخرى.

ومرة أخرى تصور الحادث بكامله: كان ذلك منذ أربع سنوات حين أتى خيرى يقول له بأنه لن يستطيع أن يعيش معه، ولكنه سوف يمنحه غرفة في مكان ما وخادمة تأتيه ساعة في كل يومين لتعنى بشؤون ملابسه وطعامه.. وفي تلك اللحظة عرف أنه فقد كل شيء في العالم، وشب فيه غضب حزين مشلول، فأجال عينيه حوله وليس يدري لماذا لم يقل شيئاً بل اتجه إلى خيرى الواقف في وسط الغرفة واضعاً كفيه في جيبه، وانهمر على ركبتيه أمامه وحاول أن يقبل يده، ولكن خيرى شد يده بعنف وتراجع خطوة إلى الوراء وصاح بكل ما في وسعه:

- أنت؟ أيها العجوز الخرف!

أنا عجوز خرف! عجوز خرف لأنني أردت أن أقول لك بأن الحياة ليست غرفة وخادمة وملابس وأكل. أعجوز خرف لأنني أحببتك، لأنني كنت ذليلاً على قدميك.. لأنني طالبتك، رجوتك، توسلت إليك أن تعطيني ما أريد، لأنني لم آخذ ما أريد بذراعي وكفّي وأصابعي..

«أيها العجوز الخرف!» قالها مرة أخرى وهو يجرجر قدميه فوق رمل الحديقة ومرة أخرى بعثت في أحشائه غضباً لاذعاً مميتاً،

إلا إنه وجد السلوى حين عاد يفكر بأنه سوف يحصل على ما يريد هذه المرة، ودون أن يطلب ذلك من أحد.. كان بوسعه أن يطلب من الخادمة، من جاره، من أي صبي يعبر الطريق في الصباح أن يتجه إلى ركن الحديقة ليحمل له القط الصغير، إلا إنه آثر أن يفعل ذلك بنفسه.. لقد قطع على نفسه عهداً بأن لا يطلب شيئاً من أحد قط.. إنه لا يستطيع أن يحتمل خذلاناً جديداً، ولو كان خذلاناً تافهاً..

في ركن الحديقة استطاع أن يرى القطة السوداء مستلقية إلى جانب الحائط وقد رفعت رأسها محدقة إليه بعينين لامعتين. علق عصاه على كوعه وأخرج من جيبه كيساً صغيراً وانحنى يفتش عن صغارها، اثنان منها يضطجعان إلى جانبها بعيون مغمضة وأذنان قصيرة، وغير بعيد عنها كان يستلقي الصغير الثالث فاتحاً حدقيه على وسعهما ضارباً بذيله تراب الحديقة ضربات موقوتة. قال الشيخ في ذات نفسه: ها هو ذا. اقترب منه وحمله. كان في حجم قبضته، أسود الشعر كالليل، أخضر العينين كالربيع، أسقطه داخل الكيس ببطء فمادت أمه بصوت فاجع وانتصبت واقفة فوق قوائمها الدقيقة، إلا إنه لم يبال، لف فتحة الكيس حول معصمه وكر عائداً ببطء. لحقته الأم بضع خطوات ثم توقفت وأخذت تتابعه بمواء

مقطع، ألقى بنظرة سريعة إليها، وردد في أعماق صدره: إذا أردت شيئاً فخذ به ذراعيك وكفيك وأصابعك.

كان يرجف مستثاراً حين فتح باب غرفته العارية، فأز بصوت عليل متعب، فتش ببصره عن قطه الكبير الأبيض فوجده ممدداً تحت الطاولة، وفكر مستمتعاً: سنرى الآن ما الذي سيحدث... أسقط الكيس على الأرض فخرج القط الصغير الأسود ببطء ووقف ينظر حواليه راجفاً، ورفع القط الأبيض الكبير رأسه وهدق برهة ثم مشى بطيئاً متكاسلاً، وحين وصل إلى القط الصغير دار حوله دورتين، ثم شمّه عن كئيب ومدّ يده فجس رأسه، وعاد أدراجه إلى تحت الطاولة..

أحس الشيخ بخيبة أمل صغيرة ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام واتجه عائداً إلى سريره دون أن يكف لحظة واحدة عن مراقبة القطين، إلا إن شيئاً لم يحدث طوال ساعة. وحين أوشك الشيخ أن يغفو سمع صوتاً غريباً في الغرفة ففتح عينيه مفكراً، ثم اتجه ببصره إلى الكيس فلم يجد القط الأسود الصغير. قام من سريره بثقل، ونظر تحت الطاولة.. كان القط الأبيض الكبير مستلقياً على جنبه فيما كان القط الأسود يغرس رأسه بضراوة مفتشاً عن ثدي يرضع منه.

قال العجوز بصوت مرتفع: إنه جائع. وحين قام عن سريره ليفتش عن شيء ما يطعمه للقط الصغير الأسود راودته فكرة مفاجئة ما لبثت أن بعثت فيه فرحاً حقيقياً: لا، لن أطعمه، لنر ما الذي سيحدث..

عاد الشيخ إلى سريره فجلس على حافته فاركاً كفيه الكبيرتين ببعضهما، كان القط الأسود الصغير ما زال يحاول جاهداً إيجاد ثدي يدرّ له الحليب في بطن القط الأبيض، إلا إن القط الأبيض قفز، بعد لحظة، إلى الطاولة واستلقى فوقها بينما أخذ الآخر يموء ناظراً إليه مبتسماً لعجزه عن اللحاق به..

قال الشيخ بصوت مرتفع:

- أيها القط الصغير المسكين! أنت لا تعرف أن هذا ليس أمك..
ثم إنه قط ذكر لا يستطيع أن يهبك شيئاً..

هز رأسه بمرارة ومضى مخاطباً القط الأسود الصغير:

- أعرف أنك جائع وأنت لا تأكل إلا ما ترضعك أمك.. ولكن هذه هي الحياة أيها الصغير المسكين.. الناس يفقدون أمهاتهم وآباءهم، والأمهات والآباء يفقدون أبناءهم، وعلى كل مخلوق أن يتدبر أمره..
إلا إن القط الصغير واصل مواءه الفاجع بصوت ثاقب، وكان القط الآخر قد اقترب من حافة الطاولة وأخذ ينظر، من فوق،

وبعينين مفتوحتين على وسعهما إلى المخلوق الأسود الصاحب
على رغم ضآلته، بالطلب الغريب..

ورغم كل الضجيج الذي كان يحدثه مواء القط الصغير استلقى
الشيخ في سريره سعيداً بالحياة التي بعثت، فجأة، في الغرفة
العارية، بل إن المواء المتواصل الرفيع لم يمنع الشيخ من الاستسلام
للنوم. وحين صحا في أ بكر الصبح، اتكأ فوق وسادته وأجال عينيه
في أرجاء الغرفة مفتشاً عن القطين، ثم رأهما إلى جانب العتبة:
القط الأبيض الكبير مستلقٍ على جنبه تاركاً المخلوق الأسود الصغير
يمتص شعر صدره بنهم، مصدراً صوت رضيع صغير..

نهض من سريره وانحنى فوق القطين وقال بصوت مبحوح:

- ورغم ذلك، أيها الصغير المسكين فإنك لن تشعر بالارتواء

وفي اللحظة التالية رفع القط الأبيض رأسه وهدق إلى الشيخ

بعينين متوسلتين ثم عاد فأغمضهما باستسلام، وكان الشيخ عرف ما

الذي يريده القط فانحنى مرة أخرى فوقه ومضى يحدثه بصوت

مبحوح:

- إنني أعرف بأنك غير راض عني.. ولكنني أنا الآخر غير راض

عن أيما شيء.. صحيح أنني أخذته من حضن أمه ولكنني، أنا،

طردت من بين ذراعي ولدي، خيربي الذي صرفت من أجله حبات

عيني.. يجب أن تفهم ذلك أيها القط الأبيض الكبير.. لقد عشت
معي أربع سنوات في هذه الغرفة المجنونة..

إلا إن القط لم يفتح عينيه مرة أخرى واكتفى الشيخ بأن هز
رأسه بإصرار واستدار عائداً إلى سريره وقبل أن يستلقي تساءل
بصوت مسموع:

- حتى متى سيستمر ذلك؟ لا بد من أن تأتي اللحظة..

ولم يجد مانعاً يمنعه من الاستسلام للنوم مرة أخرى.

حين انفتح الباب فقط تذكر أن اليوم هو موعد الخادمة، فطمر
رأسه تحت اللحاف كعادته. كان يكره هذه الخادمة الصارمة،
ويرفض أن يتبادل معها الحديث مستمعاً بصمت وبصبر نافذ إلى
ثرثرتها التي لا تنتهي.. ولكنها اقتربت من سريره هذه المرة اقتراباً
بشعاً، سمع صوت حذائها يخطو إليه ثم يتوقف، ثم سمع شهقتها
في نفس اللحظة التي رفعت فيها اللحاف عن رأسه. نظر إليها وهي
تحقق إليه بعينين مذعورتين وأشارت إلى العتبة وهي تصرخ:

- انظر هناك!

وببطء استوى الشيخ جالساً في سريره وألقى ببصره إلى العتبة.
بادئ الأمر لم يصدق عينيه، إلا إن المنظر كان واضحاً حقيقياً: القط
الأسود الصغير ما زال مستلقياً هناك وقد غرس أنيابه الدقيقة في

صدر القط الأبيض الممدد بسكون راض، فاتحاً عينيه العميقتين عن
نظرة اكتفاء، كان الدم يسيل لامعاً قانياً خلال الشعر الناصع البياض،
فيما كان القط الرضيع ماضياً بامتصاصه بنهم وبصوت مسموع.

بيروت، ١٩٦٢

Twitter: @ketab_n

عشرة أمتار فقط

قادتنا الظروف نفسها تقريباً للسفر إلى هناك.. لقد قبلنا بنوع من الاختيار البطل، أن ننفي أنفسنا مقابل أن نرسل لعائلاتنا ما يقيم أودها. وحينما التقينا هناك حاولنا جهدنا أن نجعل الحياة محتملة بشكل من الأشكال..

ودون أن ندري تماماً استطعنا أن نشكل بعفوية دوائر واسعة من العلاقات العادية: كانت الحياة، هناك، جافة يابسة، ولم تستطع العلاقات الواسعة تلك أن تدخل إلى حياتنا إلا شيئاً بسيطاً وتافهاً من النكهة والمذاق، كان الرجال طبيين في مجملهم وإن جعلتهم الحياة أكثر جلافة وخشونة، وسنة بعد سنة اعتدنا ذلك النوع من الحياة واعتدنا خشونة العلاقات، ورضيناها ثمناً للعلاقة نفسها... كانت أعلى شيء يمكن للمرء أن يحصل عليه في ذلك المنفى. كنا نمضي أيام العطلات في تجمعات صغيرة نلعب الورق،

ونشتم.. ونسلي أنفسنا - هكذا كنا نسمي الأمر مجرد تسلية -
بمقامرات صغيرة.. واليوم، الجمعة، غادرت بيتي المرمي في طرف
المدينة الساكن، وقلت لنفسى: سأمشي مشياً إلى بيت صديقي..
منذ الصباح، منذ صحت، وأنا أخوض في نقاش سخيف مع
زميلي في البيت المنعزل.. مجمل القصة أنه كان يستمع إلي وأنا
أحاور المرأة التي اعتادت أن تأخذ ملابسنا وتغسلها على شاطئ
البحر... والحقيقة أنني كنت أحسبه نائماً، على أي حال... لم يكن
نومه أو صحوه يهمني، كانت المرأة يافعة نضرة وإن كانت قدرة،
وكان وجهها مدوراً:

- هل أنت وحدك؟

- نعم، ادخلي.. هيا..

- كلا! كلا! أنا أعرفكم، سوف أجد في الداخل عشرة رجال على

الأقل ولسوف يتناوبونني.. أنتم تكذبون دائماً..

أمسكتها من رسغها، كان لدناً وناعماً إلا إن صديقي أسقط شيئاً

على الأرض فهربت المرأة مذعورة.

- لقد أسقطت المرأة عمداً..

- نعم.. عمداً.. ما كنت أريد أن تتصرف هذا التصرف الشائن!

- أي تصرف شائن تتحدث عنه؟ أنت ما زلت طفلاً في هذا

البلد، وغداً سوف تذوب أسي وشوقاً!

كان الشارع طويلاً وصامتاً وبعضه كان ترباً.. وفكرت وأنا أسير وحيداً أتصعب عرقاً تحت الشمس المتوهجة بشكل لا يطاق أن هذا ليس إلا محض جنون. كان علي أن أستأجر سيارة، فليس من الممتع أن يسير المرء في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا الشارع، إلا إنني واصلت المسير كأن الفكرة لم تكن تعينني على الإطلاق..

ما معنى أن أقول له: هذا مجتمع غير متوازن... امرأة واحدة لكل سبعين رجلاً، ويا ليتهم يرونها! إن كل شيء يفقد معناه حين يعتاد المرء عليه.. أنا ألعب الورق كل بعد ظهر، أخسر وأربح وأشتم وأتشاجر.. ثم يشرق صباح اليوم التالي.. أما إذا دخلت المرأة إلى بيتي.. إذا ذهبت إلى السرير القذر المبلل بعرق الصيف والذي يفوح برائحة النوم فثمة شيء إنساني جديد يحدث.. وهذا أمر يستحق الاهتمام!

- كيف؟ أنت تغرر بفتاة بريئة.. الإنسان يجب أن يتحكم بشبقه!

أوه! كم نحن سخفاء حين ندخل الحضارة قسراً إلى اليأس والأسى الإنسانيين..

- تكسي يا سيدي!

- كلا، لقد وصلت..

أمامي أكثر من نصف ساعة مسير.. شيء مضحك أن يضع الإنسان نفسه في سيارة، مستفيداً من الحضارة ثم تبقى المسافة بينه وبين إنسانيته معطلة تماماً!

تباً لهذه الحضارة التي نحسن التشدق بها كما نحسن لعب الورق!

- لو افترضنا أن المرأة طاواعتك ودخلت إلى البيت.. ماذا ستريح من الأمر كله؟ ألن يؤنبك ضميرك فيما بعد؟

- ضميري؟ أيها الصغير، إن ضميري هو حاجاتي، رغباتي.. مطالبتي البشرية العادية.. لقد تعلمت هذه الفلسفة هنا.

أمرغم أنا على تقديم التفسير لهذا السيد المهذب؟
الحر ما يزال قاسياً ولكن الرغبة في المسير كانت أيضاً ما تزال قاسية.. في ظل العمارة المجاورة كان رجلان يلعبان طاولة الزهر أمام دكان، الرجلان سمينان طويلان على قدر ما استطعت أن أخمن من جلستهما.. ورغم أن الرجلين كانا يلعبان باهتمام إلا أنني لاحظت، وأنا على بعد عشرة أمتار منهما تقريباً، أنهما يتحدثان في موضوع آخر غير اللعب.

وكما يستطيع الإنسان أن يفكر بعدد كبير من المواضيع دفعة

واحدة، كذلك استطعت أن أشاهد المنظر كله، من مكاني، دفعة واحدة.. كان يقف إلى جانب الرجلين رجل ثالث نحيل يتابع بعينين متيقظتين كلا الرجلين بلهفة... وبدا لي كمن يحاول أن يلتقط بين الفينة والأخرى بكلمة ما مقاطعاً الآخرين، إلا إنه كان يردد للصمت مرة أخرى بنوع من الذلة، وبالإجمال كان وجهه غير مريح إطلاقاً... وكان يمسك بيده الكبيرة زند طفل صغير، في حوالي السادسة من عمره، وكان الطفل قد دور رأسه إلى الشارع، وأخذ ينظر بفرح واهتمام إلى السيارات والناس، فيما أدخل أصبعين من أصابعه في فمه وأخذ، غير عابئ بأي شيء، يمتصهما بصوت مسموع...

سوف يكون رفيق الآن بانتظار شريك اللعب، لا بأس، فلينتظر.. ليس في هذا البلد أحلى من لحظة حلم يعيشها الإنسان حتى لو تحت شمس حارقة، خارج المكان وخارج الزمان. كان وجه الغسالة وجهاً مدوراً رائعاً، وشفرتها السفلى ناضجة على وشك أن تسقط أو تنفلق.. لو لم يسقط ذلك الغبي مرآته لحدث نتوء ما في العجلة المصقولة المدورة.

أما قصة الضمير..

كان الوقت ظهراً، والطقس حاراً.. ولم يكن ثمة عدد كبير من الناس، وكانت السيارات قد قلت عن ذي قبل وبدا الجو كأنه على

وشك أن يمطر ماء ساخناً..

- تكسي يا أستاذ؟

- أوه، كلا..

خمسة أمتار ما تزال بيني وبين الرجال الثلاثة والطفل، وسمعت
نتفاً من صوت الرجل السمين وهو يقول لصديقه دون أن يرفع
رأسه عن الطاولة:

- ماذا ترى أنت؟ الأمر كله ينتظر موافقتك.. لقد حركت حجرك

خانة أكثر مما يجب، تذكر جهاز دو فقط..

أجاب الرجل السمين الآخر:

- كان خطأً، لم أحاول الغش.. رأيت أن الصغير لا يصلح.. على

أي حال - العب، لا تفكر مطولاً - على أي حال، الأمر يعود لك..

- لست أدري، لو كان أكبر سنة أو سنتين، إن هذا المخلوق

يغشنا دائماً لأننا طيبو القلب. «شيش يك».. سوف آكل حجرتين

دفعة واحدة، انتبه..

كنت قد حاذيتهما فنظرت إلى الطفل، لقد قاسني بعينين

واسعتين وهو ماضٍ يمتص أصبعه، ثم مدّ رأس لسانه بشيء من

الخوف ودفع برأسه إلى الأمام قليلاً وابتسم... تباطأت في مشيتي

فسمعت الرجل النحيل يقول وهو يدفع الطفل بشدة أمام الرجلين:

- وماذا يهمكما؟ ثم إنكما لم تنظرا إليه جيداً..
صاروا الآن، جميعاً، وراء ظهري.. لقد خفت سرعتي أكثر،
وسمعت أحد الرجلين يقول:

- لست أفهم كيف تقول لا يهمكما وأنت لست إلا قواداً!
تكتكت قطعنا الزهر العاجيتان وهما تتدحرجان في ساحة
الطاولة، ثم ضرب أحد الرجلين حجره بقوة ففرقع فوق الخشب
الرقيق، بينما ضحك الآخر ضحكة مقطعة صغيرة وبالكد سمعت
صوته:

- أنا لست أرى أنه سيئ كما تعتقد أنت.. لو فكرت..
لم أعد أسمع شيئاً الآن، لقد حاولت أن ألتفت ورائي إلا إنني
لم أشعر بقوة كافية لكي أفعل..

- تكسي يا أستاذ؟

- كلا.. كلا.

أحسست بيدين قويتين تهزان كتفي فالتفت مذعوراً:

- يا أخي حرام... حرام.. حرام.

نظرت إليه، كان رجلاً مسناً بظهر قليل الانحناء، وكان يلبس
نظارة مدورة ذات طوق من الفضة تلمع وراءها عينان صغيرتان،
وكان يرتجف وهو يردد، ويهزني:

- حرام.. حرام..

- ما هو الحرام هذا؟

أشار بإبهامه إلى الوراثة وقال بصوت مقطوع:

- الطفل.. إنه لا يعرف شيئاً.. حرام!

تلقت حوالياً باضطراب وقلت لنفسي إن هذا الشيخ كان

ورائي، ولقد سمع نفسه ما سمعته أنا.

عاد فوضع كفيه فوق كتفي وترك عصاه تتأرجح على ذراعه

وأخذ يهزني:

- حرام.. حرام.. ماذا نستطيع أن نفعل؟

- لا شيء... أنت ترى، أنا ضعيف البنية، وأنت رجل عجوز... ثم

إن هذا كله لن يصلح العالم!

أنزل الشيخ كفيه عن كتفي بيأس، ثم أخذ ينظر حوالياً:

- الطفل.. الطفل.. إنه لا يعرف شيئاً.

رددت، كأنما لنفسي:

- ثم إن هذا لن يصلح العالم...

- تكسي يا سيدي؟

- أوه. كلا... كلا..

تابعت طريقي تحت القيث والغبار والشمس الساطعة التي لا

تطاق.. تكسي؟ لماذا؟ أتراه كان قادراً على حملي عبر الأمتار العشرة
التي مشيتها الآن؟ تكسي؟ كلا! إن هذا لن يصلح العالم قط.

الكويت، ١٩٥٩

Twitter: @ketab_n

المنزلق

سار الأستاذ محسن في الممر الطويل المؤدي إلى صفه بخطوات بطيئة مترددة، كانت تلك هي تجربته الأولى في عالم التدريس، ولما كان لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل حين يدخل إلى الصف فقد حاول جهده أن يبعد تلك اللحظة قدر ما يمكن...

في الليلة الماضية تقلب على فراشه حتى الصباح وهو يفكر في الأمر: إن من العسير على المرء أن يقف أمام الناس.. ولماذا؟ ليعلمهم! ومن أنت لتفعل ذلك؟ لقد عشت حياتك البائسة دون أن يعلمك إنسان أي شيء ينفعك، أعتقد أنه بوسعك أن تعلم الناس ما ينفعهم؟ أنت نفسك آمنت بأن المدرسة هي آخر مكان يتعلم فيه الرجل الحياة، فما بالك الآن وقد صرت مدرساً فيها؟

في الصباح حملت نفسك إلى غرفة المدير، وجلست هناك تستمع إلى بقية الأساتذة وهم يناقشون الأمر الذي شغلك، ولكن

من زاوية أخرى..

- ماذا عسانا نفعل في الصفوف إذا كان الصغار دون كتب؟

وأجاب المدير من أنفه باختصار:

- أي أستاذ قدير يعرف كيف يشغل حصته دون كتب!

ثم انكفاً شارحاً بلووم:

- تطلب من أحد الأطفال أن يشغل الحصة عنك إذا عجزت..

قال الأستاذ محسن لنفسه: ها هو ذا مدير مدرسة يريد أن

يلقن أساتذته درساً بالانتظام والطاعة منذ اللحظة الأولى، لقد قبض

الأقساط قبل أسبوع وعليه الآن أن يقبض أرواحنا.

جرع الشاي وقام..

الممر الطويل مملوء بصخب الأطفال وصياحهم، والأستاذ

محسن بخطواته الثقيلة يحس بأنه إنما يسير في دوامة تؤدي إلى

مستقبل قميء مترع بالضجة والسخف.. الضجة والسخف وليس

غيرهما!

- لدي قصة جميلة يا أستاذ..

صاح طفل كان مكوماً على نفسه في آخر مقعد، فقدم حلاً

ملائماً لذلك الموقف المضطرب. وقبل أن يوافق الأستاذ محسن

على الاقتراح كان الطفل قد صار خارج صفوف المقاعد، وواجه

رفاقه ببنتال قصير أوسع من حجمه، وقميص ذي قماش نسائي عتيق، وشعر أسود غزير يصل متهدلاً إلى حاجبيه...

كان والدي رجلاً طيباً... كان شعره شائباً، وكانت له عين واحدة، أما عينه الأخرى فقد اقتلعها بنفسه حين كان يخيط نعلًا سميكًا لحذاء رجل ضخم، لقد كان مكباً على الحذاء يحاول جاهداً أن يدخل الإبرة الكبيرة في النعل، إلا إن النعل كانت قاسية جداً، ضغط كل ما فيه بلا فائدة، ضغط أكثر، لا فائدة، ثم رفع الحذاء إلى صدره وضغط بكل قوته فخرجت الإبرة فجأة من الناحية الأخرى ودخلت في عينه..

كان أبي رجلاً طيباً، لم تكن لحيته طويلة، ولكنها لم تكن قصيرة أيضاً، كان يعمل كثيراً، وكان يجيد عمله، وكان لديه دائماً الكثير من الأحذية ليصلحها ويجعلها ملائمة من جديد.

ولكن أبي لم يكن يملك دكاناً صالحاً، ولم يساعده أي إنسان في عمله، كانت دكانه عبارة عن صندوق من الخشب والصفائح والورق المقوى، ولم تكن تتسع إلا له ولعدد من المسامير والأحذية والسندان، وفيما عدا ذلك لم يكن يوجد متسع لذبابة، وكان يتعين على الزبون أن يقف خارج الصندوق إذا أراد أن يصلح حذاءه. كان الصندوق هذا موضوعاً على منحدر هضبة يعلوها قصر

رجل غني، ولم يكن بوسع أي إنسان أن يكتشف وجود هذا الصندوق إذا بحث عنه من شرفة قصر الرجل الغني. ذلك أن الحشائش كانت قد نبتت فوق سطحه التراب، ولذلك فإن أبي لم يكن يخاف من أن يكتشف صاحب القصر مخبأه فيطرده، صاحب القصر لم يكن ينزل من قصره أبداً، كان الخدم يقومون بإيصال كل ما يشتهيهِ إلى قصره، وقد اتفق أولئك مع أبي على أن يكتُموا السرَّ عن مخدومهم مقابل أن يصلح لهم أحذيتهم مجاناً.

لقد واطب أبي على عمله دون خوف أو تردد، وكان الناس يكتشفون أنه يستطيع إصلاح الأحذية ببراعة حتى يجعلها تبدو وكأنها جديدة تماماً، ولذلك فإن مزيداً من الأحذية كان يأتيه كل يوم، وكان يمضي نهاره، ونصف ليله في عمل متواصل. وكان يقول لأمي: غداً سيذهب الأولاد إلى المدرسة.

وكانت أُمي تقول له: إذن سوف تستريح قليلاً من عناء العمل. عاد الطفل إلى مكانه، إلا إن رفاقه لم يحركوا ساكناً، فصاح الأستاذ محسن:

- لماذا لم تصفقوا لصديقكم، ألم تعجبكم القصة؟

- نريد أن نعرف بقيتها...

- هل توجد بقية لقصتك؟

- قبل شهر أو أكثر تكوم عنده عمل كثير فلم يعد بوسعه أن يعود إلى البيت، وكانت أمي تقول لنا إنه يعمل ليل نهار دون أن يخرج من صندوقه. لا وقت عنده للخروج. وكان الرجل الغني يجلس طوال النهار وطول الليل على شرفته يأكل موزاً وبرتقالاً ولوزاً وجوزاً، وكان يلقي بالقشور، عبر سياج شرفة قصره إلى منحدر الهضبة، وذات صباح كانت الهضبة قد امتلأت بالقشور، ولم يستطع الخدم أن يجدوا صندوق أبي بين كل تلك القشور. أمي تقول إنه كان منهمكاً بالعمل إلى درجة أنه لم ينتبه أبداً إلى كل ما كان يلقي فوق صندوقه، كما اعتاد أن يفعل، أغلب الظن أنه ما زال جالساً في صندوقه يعمل جاداً في إصلاح ما لديه من الأحذية كي يسلمها في موعدها وحين ينتهي من ذلك سوف يعود إلى البيت.. ولكنني أعتقد أنه مات هناك.

صفق التلاميذ، وعاد الطفل إلى مكانه فجلس بهدوء، وعادت العدسات الستون تحدق، بريقة لامعة، بالأستاذ محسن..

اقتاد الأستاذ محسن الطفل إلى غرفة المدير، وفي الطريق سأله:

- هل تعتقد حقاً أن أباك مات؟

-- أبي لا يموت، لقد قلت ذلك فقط كي أنهي القصة، ولو لم أفعل ذلك لما انتهت قط، بعد شهور سيأتي الصيف، وسوف تجفف

الشمس أكوام القشور حتى يخف ثقلها فيستطيع أبي أن يزيحها من فوقه ويكر عائداً إلى الدار.

وصل الأستاذ محسن إلى غرفة المدير وقال له:

- لدي في الصف طفل عبقرى. أعتقد أنه رائع، دعه يسمعك قصة أبيه..

- ما هي قصة أبيك؟

كانت دكانه صغيرة جداً وكان بارعاً، وذات يوم وصلت شهرته إلى صاحب القصر الذي كان يطل فوق دكانه الصغيرة، فأرسل له بكل ما لديه من الأحذية العتيقة ليصلحها ويعيدها جديدة مرة أخرى. لقد اشتغل جميع الخدم في نقل تلك الأحذية إلى الدكان الصغيرة لمدة يومين كاملين، وحينما انتهوا من نقلها كان والذي قد اختنق تحت أكوامها، فالدكان الصغيرة لا تتسع لكل تلك الأحذية..

وضع المدير إبهامه في جيب صدرته، وفكر قليلاً ثم قال:

- هذا طفل مجنون، يجب أن نرسله إلى مدرسة أخرى.

قال الطفل:

- ولكنني لست مجنوناً، اذهب إلى قصر الرجل الغني وانظر إلى أحذيته فستجد عليها أطرافاً من لحم أبي، بل ربما تجد عينيه وأنفه في نعل حذاء ما... اذهب إلى هناك..

قال المدير:

- إنني أعتقد أنه طفل مجنون..

أجاب الأستاذ محسن:

- ولكنه ليس مجنوناً، أنا نفسي أصلحت حذائي عند والده،

وحينما عدت لأصلحه مرة أخرى قالوا لي إنه قد مات.

- كيف مات؟

كان يدق نعلًا لحذاء عتيق، ولقد دق يومها كثيراً من المسامير

في تلك النعل كي يجعلها متينة تماماً، وحين انتهى من ذلك وجد

أنه قد دق أصابعه بين الحذاء والسندان، تصور! كان قوياً إلى حد

كان يستطيع معه أن يثقب السندان الحديدي بمساميره، ولما حاول

أن يقوم لم يستطع، كان مثبتاً إلى السندان بإحكام، ولقد رفض

المارة أن يساعده، وبقي ملصوقاً هناك إلى أن مات...

نظر المدير إلى الأستاذ محسن من جديد، كان واقفاً هناك إلى

جانب الطفل، ملتصقين ببعضهما كأنهما شيء واحد، وهز رأسه

مراراً دون أن يقول شيئاً، ثم عاد، فجلس في كرسيه الجلدي الوثير

وأخذ يراجع أوراقه فيما كان يرمق الأستاذ محسن والطفل بطرفي

عينيه بين الفينة والأخرى.

بيروت، ١٩٦١

Twitter: @ketab_n

علبة زجاج واحدة

كنا نعيش كفئران التجارب، في علبة من زجاج نظيف: نأكل جيداً، وننام جيداً.. نذهب إلى البحر أحياناً فنغسل ضجرنا بالماء والشمس.. ونعود إلى علبة الزجاج.. لقد أعطونا كل شيء.. إلا المرأة.. وهذه كانت مشكلتنا..

في الشهر الأول ضرنا نشترى المجلات الملونة العارية، في الشهر الثاني لم نجد حرجاً يمنعنا من تعليقها في صدور غرفنا.. في الشهر الثالث: مزيداً من الصور، وفي الشهر الرابع مزقناها.. كان الاحتمال قد وصل إلى حلوقنا، وانسكب من هناك غضباً مروعاً.

بعد عام، أطلقونا من العلب الزجاجية، فسافرنا: كل واحد منا توزع في مكان لا يطاله الآخر، كنا في الحقيقة، نعد العدة لعام آخر من الحرمان، وكان من الضروري أن يذهب كل منا إلى مكان مختلف عن المكان الذي يذهب إليه الآخر، كي نعود جميعاً لنلوك

قصص مغامراتنا، سنة نعوض فيها حرماناً لا يعرفه إلا من عاش في
علبة من زجاج..

حينما ذهبنا لنودع صديقاً أسعده حظه فسافر أولاً، قال لنا
وهو يلوح بمعطفه:

- سوف أفتش عن حضن أنام فيه شهراً كاملاً.. أنا تعب.

نظرنا إلى بعضنا، كأنه حكى ما في رؤوسنا، وحينما عدنا في ليلة
أمطرت السماء فيها غباراً وضجراً كان، في رؤوسنا جميعاً، حلم واحد:
المرأة! هذا الحيوان المجهول.. بدا لنا يومها شيئاً كالظل في ظهيرة
صحراء.. ولم ننم ليلتها.. كنا نلوك أملاً واحداً ونحن نعانق عرقنا في
الفراش الساخن المرمي فوق السطوح: غداً سنصل إليها.. نرتمي بين
ذراعيها.. عيناها بثران لا يتعبان من الإرواء.. شفتاها كرزتان في كف
بدوي محروق.. نهدها وسادتان محشوتان بأحلام طرية.

- سعيد... هل نمت؟

- كلا.. إنها إلى جانبي.. كيف بوسعي أن أنام.. هل نمت أنت؟

- كلا.. ما تزال إلى جانبي.. أنا لست غيباً لأنام وأتركها. ماذا

ستفعل حين تصل؟

- سأضع حقيبتني على باب دارها.. ثم أقرع الجرس..

- أتعرف واحدة بالذات؟

- لست أعرف أية واحدة.. ولكنني أعرفهن جميعاً.. وأنت؟
- وأنا..

- حينما كنت طفلاً كنت أذهب أحياناً إلى السينما قبل بدء العرض بساعتين.. وكنت أعتقد أن مدير السينما هو الذي يتعمد تأخير الساعة حتى لا يأتي وقت العرض.. وكنت أكرهه، وأشمته.. أوتدري؟ يخيل إلي أن هناك من يتعمد تأخير الصباح..

الصباح! يا إلهي كم تأخر ذلك اليوم، ولكنه أتى... وسافرنا: حزمنا حقائبنا، واستويينا في الطائرة، وأقلعت بنا.. وحينما حلقتنا فوق علب الزجاج راودنا شعور بأننا ضيعنا شبابنا دون أن نعيش.. لم يكن بوسع أي منا أن يحدق إلى تحت أكثر مما فعل، كنا نصاب بشيء يشبه الدوار..

وكنا نحس بشيء يتقطع في صدورنا كلما هدرت الطائرة موغلة في غيوم آب العالية. وكان التقطع هذا يبعث راحة عجيبة.. كنت أسبح ذات يوم حينما تشابكت ساقاي بحبال من العشب الدقيق الأخضر.. وحينما قذفت نفسي إلى فوق، إلى الهواء كانت الحبال الكريهة تنزلق فوق ساقاي، ثم تتقطع... كنت أحس بالراحة. وكانت الطائرة ماضية، فخورة مدوية، تقطع الأعشاب الدقيقة التي امتصت لفترة طويلة بشعة، رحلتنا إلى الهواء..

ثم عدنا..

عدنا إلى علب الزجاج قبل أن يأتي ميعاد العودة..

حينما عدت أنا، كنت ناقماً على نفسي: كيف أعود إلى علب الزجاج مبكراً؟ لماذا لا أصرف كل أيامي التي مزعنا ليالينا نحلم بها وننام مع خيالها؟ ماذا سيقول أصدقائي حينما أقول لهم أنني عدت، قبل أن أهرق كل إجازتي في أحضان الحياة هناك حيث الهواء والشمس التي لا تكره الناس؟ كيف؟

- سوف لن أقول لهم أنني عدت مبكراً..

إلا إنني، حينما وصلت علبه الزجاج، كان صديقي هناك. وقال أنه عاد قبلي بأسبوع..

وضعت حقيبتني على الأرض، واستندت إلى الباب.. كتفت ذراعي فوق صدري، ونظرت إليه ملياً، كان جالساً كأنه لم يذهب قط عن طرف سريره، ينظر إلى الأرض والعرق الكريه ينساح فوق صدغيه ويبلل قميصه على عرض الأكتاف.

مشيت خطوتين كأن العالم لم يكن طوال الشهر الماضي.. كانت الأوراق على الحائط، تحت صورة عارية، تكاد تسقط «٧»

آب». ذلك اليوم الذي غادرنا فيه علب الزجاج.. كأنه ما زال، وكأننا لم نغادر.. درت على عقبي، وفي لحظة واحدة سأل كلانا نفس السؤال:

- حسناً.. ولكن لماذا؟ لماذا؟



قال لي صبي الفندق، وهو شاب نحيل له وجنتان بارزتان كصخرتين حادتين:

- ماذا؟ تقيم هنا أسبوعاً، ولا تعرف ما معنى كلمة كلاجية؟ وكان الصبي مدهوشاً للغاية، وضع كوب الماء فوق الطاولة الخشبية وهو يحدق إلي كأنني شيء عجيب، ثم أخذ يمسح أصابعه بثوبه الأبيض المتسخ واقترب خطوتين...

- وما معنى هذه الكلمة؟

قلتها ببرود، ومضيت أتلهى بمجلة أحملها.. بينما عاد الصبي فاقترب خطوة أخرى:

- تقيم هنا أسبوعاً.. ولا تعرف معناها؟

رفعت رأسي، ونظرت إليه... كان من ذلك النوع الذي يترك شفثيه مفتوحتين حينما ينتهي من قول شيء ما، فيبدو كأنه لم ينته

بعد، وأنه على وشك أن يكمل. وكانت عيناه صغيرتين غائرتين..
ولاحظت أنهما لمعتا فجأة.. كأنما سقطت فكرة ما إليهما واقتربا
مني خطوة أخرى:

- لماذا لا تذهب إلى هناك؟ ها؟ لماذا لا تذهب؟

- أذهب إلى هناك؟

- نعم..

وواصل هز رأسه، كأنما نسي أن يتوقف، بينما قذفت المجلة
وقلت:

- يقولون إنه مكان قدر..

- قدر؟ قدر؟ يا سلام! وماذا يهمك أنت؟ إذهب تفرج.. تفرج..

إن نصف حياتك فرجة على الناس، ونصفها الآخر فرجة الناس
عليك.. لقد قال لي هذا الكلام رجل ما برح، منذ ولد، يطوف في
العالم على دراجة..

وفي الواقع أنني لم أكن أحتاج لتشجيع الغلام السليط كي
أذهب إلى هناك.. وهكذا توجهت إلى الكلاجية فور أن هبطت
العتمة.. كنت وحيداً، ولقد عبرت الأزقة الرطبة ذات الجدران
الخضراء المقشورة والشبابيك الخشبية الواطئة، وكان صوت خطواتي
يتردد في أذني كأنه صوت خطوات رجل آخر يتبعني. وحينما انتهى

الزقاق انفتحت أمام بصري ساحة واسعة أقيمت في صدرها بوابة من خشب.. لقد توجهت إلى البوابة بخطوات ثابتة. ما من أحد يعرفني في هذا البلد، وفور أن عبرتها تفجرت في أذني أصوات ماجنة متشابكة.. وكان الناس رجالاً ونساء، يتماوجون كأنهم طوفان.. إنه عالم فاوست! هكذا قلت لنفسي وأنا أحاول أن أشدها إلى شيء ثابت وقيم.. لقد بدا لي كل شيء رخيصاً للغاية.. وكنت خائفاً من الضياع.. ها هو ذا عالم فاوست! الشياطين والسحرة أتوا من أنحاء العالم وزواياه ليتجمعوا هنا.. وهأنذا في صميم الضجيج. عاهرات طلين وجوههن بمساحيق شيطانية. وانتزعن ملابسهن إلا أقلها، فبدون من عالم آخر: بشعات، مترهلات، قذرات يتدفقن بالشتائم والعهر.. يعتبن أبواب غرفهن، ويمضين يستدعين العبور كاشفات عن سيقانهن الزرقاء، مبرزات نهوداً ترهلت من فرط ما عبر فوقها الرجال... وبعض آخر منهن تعرض الطريق بشتم الله والشرطة، ويتمسكن بالعبور ليكتشفن رجلاً سكراناً يسهل جره إلى غرفة الرجس.. وكان القوادون يرابطون في زوايا مظلمة بانتظار شجار يحدث دائماً... أو بانتظار رجل يدفع أكثر، ليخدموه أو يدفع أقل ليضربوه.. ووراء الشبابيك كانت تجلس نسوة سمينات ينتظرن الموت، أو المستشفى. يتحدثن عن الماضي دائماً.. ويتسولن ضريبة

قوادة بكبرياء حتى لا يمتن من الجوع..

مشيت في ذلك العالم كإنسان خرج من عالمه المألوف.. لقد اعترضتني بادئ الأمر بدوية خرزت وجهها بوشم قبيح، كانت سمراء محروقة، وكان لها سن من ذهب، استوقفتني ثم مدت يدها إلى ثديها وقالت:

- أنا لست كالأخريات.

حينما حاولت أن أبتعد، دفعتني فسقطت في أحضان امرأة سمينة أخذت تعض أذني، وكانت البدوية قد اتكأت على حائط قريب وأخذت تضحك بعهر وعنف.. لقد بذلت جهداً كبيراً لأتخلص.. ثم لأبتعد..



كيف صادفتها؟ لست أذكر الآن، حتى اسمها الذي كررته على مسمعي ألف مرة لم أعد أذكره.. وما الأهمية من كل ذلك؟ لقد رأيتها فجأة، كأنما سقطت من فوق، أو انبثقت من تحت.. كان وجهها بشعاً منتفخاً، لقد اعترضتني، ومدت كفها مبسوفة تجاهي، وأمالت رأسها فوق كتفها.. كانت تتسول.. ولما حاولت أن أجتازها

تحركت ببطء وسدت علي ذلك الجانب المظلم من الزقاق.. ومدت
كفها أكثر إلي...

- لماذا لا تشتغلين كالبقية..؟

سألته، كأنما لم يكن بوسعي أن أحركها من مكانها وأجتازها،
كانت واقفة هناك، وكان كفها في حلقي..

- أشتغل؟ ها.. ها.. كيف؟

أسقطت يدها برخاوة، وطأطأت رأسها.. ثم أشارت إلى بطنها:
كانت حبلى.

لست أدري كيف تحرك لساني، ولكنني لم أكن أستطيع إيقافه..
وسمعت صوتي كأنه صوت إنسان آخر:

- كيف حدث ذلك؟

- حدث! حدث! لست أدري.. عمره الآن ستة شهور كما أعتقد..

- من هو أبوه..؟

دورت جسدها برخاوة دون أن تحرك قدميها، وكانت ذراعها
تشير بإعياء حولها.. حيث كان الضجيج الأهوج لمئات من الرجال
الجياع يدوي حولنا بهياج وشبق.. وعبر تلك الأصوات المطبقة
حولنا، وصلني جوابها المتعب واهناً:

- أبوه؟ ها! إنه هؤلاء..

لا شك أنها ضحكت.. إذ إنني شممت رائحة عرق مفاجئة ملأت أنفي.. لست أدري، أكانت هذه الرائحة القوية لذلك النوع الكريه من العرق.. هي التي بعثت الدوار إلى رأسي.. أم ذلك الضجيج المدوي بصخب وراء عنقي.. ولكن حلقي، على أي حال، كان ما زال مجروحاً بكفها الممدودة، فأخذت أهذي:

- أنت إذن لا تشتغلين الآن؟

- أشتغل؟

وضحكت مرة أخرى، ثم هزتني من كتفي بكفيها الرقيقتين:

- كيف؟ إنهم لا يحبون مضاجعة اثنين دفعة واحدة..

رفعت رأسها فجأة بعنف وحدقت مباشرة في عيني.. أي

شيطان جعلها تحسب أنني لم أصدقها؟

- أنت لا تصدق! ها! أنتم الرجال كلكم لا تصدقون. أنت

تحسب أنني أضع وسادة.. سوف أجعلك تصدق.. ها..

وانحنت، فرفعت ثوبها الطويل.. وكشفت عن بطن متهدل

منفوخ.. كان الثوب قد وصل إلى أسفل ثدييها وكانت تلهث كأنها

موشكة على البكاء:

- هل صدقت.. ها.. أنتم لا تصدقون.. ماذا ترى؟ وسادة؟

تكوّم حولنا عدد من السكاري، وأخذوا ينظرون إلى المشهد

ويتضحكون، اتكأ رجل ذو لحية صغيرة على كتفي ووضع ذقنه فوق ذراعه، وصاح بصوت ثاقب:

- سوف تضعين سبعة جراء صغيرة.. كالقطط..

انفجر الجمع ضاحكاً، واستجلب الضحك عدداً آخر من الرجال، بينما أخذت هي تدور حول نفسها رافعة ثوبها إلى أقصى ما تستطيع، ناظرة بعينين زجاجيتين إلى الجمع..

- بطنك يصلح قبة لمجلس نواب..

- أنا أراهن أن داخل هذا البطن تختبئ عاهرة أخرى.

وكانت الأصوات قد بدأت تتشابك وعبثاً كنت أحاول أن أمضي، لم يكن بوسعي أن أتحرك، وكنت أسمع بين الفينة والأخرى صوتها الواهن يأتي عبر الضحكات المسعورة الماجنة:

- أنتم لا تصدقون.. تعتقدون أنها وسادة..

بدأت أنسحب مزاحماً الأكتاف المبتلة بعرق ذي رائحة كريهة، وكانت رائحة الجمع تشبه رائحة حيوان في بركة من وحل.. وحينما أوشكت أن أنفلت سمعت صوتاً لرجل كان يقف في الناحية المقابلة:

- حسناً.. لقد رأينا بطنك.. دعينا نرى ثدييك..

أخذت أعدو وأنا أشد أصابعي على رزمة نقود في جيبتي.. لست أدري كيف وصلت إلى البوابة الخشبية وكانت الأصوات المجنونة

تلاحقني كسيل حطمت حواجزه، وكنت خائفاً أن يتلغني السيل..
يا صديقي! تقول علبة زجاج؟ ماذا تعرف عن علب الزجاج؟



أول مكان ذهبت إليه بعد وصول الطائرة.. كان ذلك المكان
الذي حلمنا أن نشاهد فيه اللحم والحب والاكتفاء..
وكان المكان أشبه ما يكون بقطعة من جهنم، فلتت، فصارت
فوق..

لقد مشيت في تلك الأزقة المعتمة وأنا أحس قلبي وهو ينبض
بعنف وأكاد أسمع صوته يصم أذني..
كان الرجال قد تلمثوا بكوفياتهم خوف أن يعرف بعضهم بعضاً،
وكانوا يمشون حذاء الجدران، ويتهامسون كأنهم فقدوا القدرة على
رفع أصواتهم.. وحينما كانت تمر سيارة ما، كان الرجال يشيحون
بوجوههم خوف أن يفضحهم الضوء، وكنت ألاحظ أن أصحاب تلك
السيارات تعمدوا أن يربطوا أرقام سياراتهم بقطعة من قماش كي لا
يعرف الآخرون صاحب السيارة..

إنه شيء لا يحتاج إلى حساسية خارقة، أن يكتشف المرء بأن
شعوراً عاماً بالخجل كان يسيطر على الجميع.. ولكنني - أنا بالذات

- لم أكن أبالي بأي شيء.. لم أكن خجلاً أبداً.. ولماذا أشعر بالخجل؟ أنا الذي تغسلت بالحرمان الممض طوال شهور وشهور؟ لقد تعلمت، في غمرة ذلك الحرمان القاتل، كم هو ضروري أن لا يخجل الإنسان، فأمام الاختيارين يجب أن لا نتردد.. الشيء الوحيد الذي كان يزعجني ساعتها، هو أن ما جمعته من نقود لم يكن بوسعه أن يأخذني إلى مكان أفضل، أو أبعد، وهكذا فأنا لم أبتعد كثيراً، لقد ذهبت إلى مكان قريب... وهو مكان كرهه على كل حال...

قالوا لي مرة إن العاهرات الموجودات في هذا المكان لسن، في الحقيقة، إلا زوجات مهذبات دفعتهن الشفقة على طوابير المحرومين إلى تخصيص جزء من ليليهن لهم.. فإذا كان هذا القول مبالغاً فيه، فإن الشيء المعقول هو أن كل النسوة لم يكن محترفات بالمعنى البذيء للكلمة..

ولكنني لا بد أن أعترف بأن اندفاعتي أصابها شيء من التردد بعد أن تجولت ساعة في ذلك المكان.. ربما كانت المناظر هي السبب، ربما كان الخوف.. لست أدري الآن، فطوال تجوالي في ذلك الحي لم أرَ امرأة قط.. كن جالسات داخل بيوتهن، وكان الرجال يصفقون طوابير أمام الأبواب الخشبية الواطئة، كل منهم ينتظر دوره.. بينما انحنى الرجل الذي أسعده الحظ فكان على رأس

الطابور، يراقب من ثقب المفتاح ما يجري في تلك الغرفة.
كيف كانت الغرفة تلك؟ قال لي صديق مرة أنه دخل إلى غرفة
منها، وهي غرفة صغيرة ذات سقف من قش وخطب، أرضها ترابية
فيها بحيرات صغيرة من الماء، وفي الزاوية كان ينطرح فراش قميء
فوق التراب وقد تهدل صوفه لاهتاً من ثقوب أحدثتها الفئران بلا
شك، وإلى جانب الفراش يوجد إبريق من الماء وكروسي صغير..
تجولت طويلاً، كنت قد وصلت إلى قرار فيه شيء من المعقول:
إذا صدف أن عثرت على باب خشبي واطئ، ولا يوجد أمامه أي
إنسان، فلسوف أدخل، أما إذا لم أجد فأنا في غنى عن كل ذلك..
لم يكن ثمة ما يدفعني إلى القرف تماماً.. فالحي كان هادئاً،
ومرور السيارات الملتمة كان نادراً.. مهما يكن لقد واصلت المسير.
كنت وحيداً وكان هذا أفضل من أن أكون مع صديق يثرثر بلا انقطاع.
ولقد حدث الأمر كله بهدوء.. رأيت باباً خشبياً صغيراً، وكان
الضوء يلتمع عبر شقوقه، ولم يكن يوجد أي إنسان في كل المدى
الذي استطعت أن أتبينه حولي.. اقتربت من الباب وسمعت همساً
خيل إلي أنه ينبعث من الداخل. لقد مددت يدي - أذكر كل
التفاصيل بوضوح - وكنت على وشك أن أقرع الباب لولا أن قرأت
ثلاث كلمات مكتوبة على خشب الباب بشيء يشبه الكلس الأبيض،

كان الخط عريضاً ومشرشراً.. ولقد بقيت يدي مرفوعة إلى فوق، وأنا أقرأ مرتين وثلاث مرات، وعشر، تلك الكلمات العريضة: «هنا بيت عمال».

خيّل إلي للوهلة الأولى أن هناك خطأ ما.. ولكن الأمر كان واضحاً بصفاقة، وكانت الكلمات، كما لا تزال حتى الآن، محفورة في عظام جبيني..

لقد استطعت أن أتصور وأنا واقف هناك رافعاً يدي إلى فوق كم تعذب أولئك العمال المجهولون وهم يبحثون عن بيت رخيص في تلك المدينة العمياء.. لقد بحثوا طويلاً. ثم استقروا هنا: كان البيت قدراً وصغيراً وفي حي العاهرات، ولكن هذا كان آخر ما يستطيعون إيجاده.. لقد قبلوه.. إلا إن الرجال الملفوفين بخجلهم وشبقهم كانوا يقرعون الباب الصغير ألف مرة كل ليلة بحثاً عن امرأة.. وكان العمال غير قادرين على الاستراحة..

أنزلت ذراعي برخاوة، ومشيت بطيئاً في الزقاق الكئيب ذاهباً إلى المدينة.. كيف فكر أولئك الرجال بكتابة تلك الكلمات ببساطة؟ من منهم كتبها؟ كيف فعل؟ تراهم فكروا كثيراً؟ تراهم ترددوا؟ كيف بزغت تلك الجملة ببساطة؟

جررت ساقي موهناً في شوارع المدينة، وكنت أحس العار

يزحف داخل عظامي.. بدت لي الحياة كلها حقيرة، وأضيق من أن
تتسع للإنسان ولجوعه معاً..

يا صديقي.. تقول علب زجاج؟ إنها علبة زجاج واحدة كبيرة..
نحن نتحرك داخلها، ولكننا لا نغادر.. نحن ننتقل من طابق إلى آخر،
ولكننا لا نغادر..

الكويت، ١٩٥٩

عطش الأفعى

هي التي اندفعت نحوه، أما هو فقد كان واقفاً لا يتحرك، وحدث الأمر بسرعة، وحينما سمع الزعيق التفت فجأة، وشاهد مقدمة سيارة سوداء وعجلة كبيرة، كل الذي عرفه أن السيارة كانت هي نفسها، السيارة ذاتها. وحينما شاهد غيمة بنفسجية تقترب منه اقترباً شديداً أحس بالخدر يملأ أطرافه، ثقيلًا كالرصاص، مترجراً كالزيت. وأخذ الناس يدورون حوله، كانوا خرساً كلهم، وكان بوسعه أن يراهم يسبحون حوله كأنهم في حوض ماء زجاجي، وكان مضطجعاً فوق حجر مسنن يدخل في خاصرته فانقلب إلى جنبه، وكانت نقاط من الزيت الأسود تزحف ببطء فوق الأسفلت وتقترب من بقعة حمراء لامعة ممدودة حتى وجنته.

كان يحس أن الحجر المسنن المغروس في خاصرته ما زال هناك، كان يتألم، ولكن الخدر اللذيذ الذي كان يغسل جسده من

الداخل كان ممتعاً إلى حد هائل.. وود لو أن هذه الأشباح الخرساء تتركه، تبتعد عنه، ويبقى هو مضطجعاً في مكانه الحار، ويراقب اللسان الأسود وهو يزحف كأفعى صغيرة نحو البحيرة الحمراء..

- حاول أن يعبر الشارع، فصدته السيارة!

ليس يدري متى سمع هذه الجملة لأول مرة.. ولكنها صارت تطن في رأسه كل دقيقة.. إنه يعرف الصوت جيداً... ربما يكون صوت أبيه، ليس يدري، ولكن الذي يدريه أنه لم يسمع، طوال ساعات وساعات، غير هذه الجملة.. ترى، هل هذا الصوت هو صوت أبيه؟ إنه لا يستطيع أن يتبين شيئاً، بل كاد ينسى كيف كان صوته. ترى، لو عرف أبوه أنها سيارة.. لو عرف.. ماذا سيفعل؟ من المؤكد أن هذا الصوت ليس صوت أبيه؛ إذ لو كان أبوه حاضراً لما جلس هناك يقول: صدمته سيارة..

كان ما زال مستمتعاً بالخدر اللذيذ وهو يطوف حاراً داخل جسده، ورغم أنه كان يستشعر لمس أياد كثيرة تحمله وتجسه وتضغط أنحاء جسده، إلا إن ذلك لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لسعادة الخدر.

- هل تستطيع أن تعد أصابعي؟

وصله الصوت كأنه من قطن.. وكانت أذناه ترتجان بنعومة

وهما تمسكان بالصوت، وتلوحان به، ثم تلقياه إلى مؤخرة رأسه.. إنه ليس صوت أبيه، هذا شيء مؤكد، إنه صوت من قطن.. حينما يتكلم أبوه كان يتكلم بصوت من نحاس، صوت عال يرج سقف بيتهم القديم.. وكانت أمه تقول لأبيه دائماً:

- لو كانت همتك عالية كصوتك، إذن لكننا بألف خير..

صوت أبيه.. كيف قال لنفسه مرة أنه يوشك أن ينساه؟ هل يمكن أن ينساه؟ أولم يسمعه سنوات وسنوات وهو يسير إلى جانبه في تلك الأزقة المرصوفة بأحجار ملساء مقوسة؟ ماذا كان يقول أيامها؟ لا يذكر الآن.. سوف يذكر فيما بعد، أما الآن فثمة سعادة الخدر التي تطوف بثقل لذيذ داخل عروقه الصغيرة.

- إذا كنت تستطيع رؤية أصابعي فقل لي كم عددها.. وإذا

كنت لا تراها فقل لي ذلك، هل تسمعني؟

نعم، إنه يسمعه.. لقد كان يسمع صوت أبيه دائماً من الغرفة

المجاورة يقول لأمه:

- سوف يزفون ليلى إلى عبد الهادي... ألا تعرفين عبد الهادي؟

إنه ابن المرحوم حسن الذي كان يسكن فوق البقال...

وكانت أمه تجيب، فيما هي جالسة أمام صحن الرز، تلتقط

منه الحصى:

- ومتى العرس؟

ويأتي الصوت النحاسي من الغرفة المجاورة:

- الليلة!

وكان هو ينتظر هذه الكلمة.. الليلة! أية كلمة جميلة رائعة..

عندما كان يسمعها كان يقوم لتوه، ويتسلق السلم إلى العلية، وكان

دائماً يجد الخيزرانة الطويلة بسرعة، ذلك أن الخيزرانة لا يمكن أن

تضيع في العلية.. ولكنه، دائماً كان يفشل في العثور على الطبلية

الصغيرة.. وكان يصيح، من فوق:

- أين وضعتم الطبلية؟ إنها ليست هنا!

وكان يأتيه الصوت من أبيه الحانق:

- انزل أيها العفريت، انزل.. متى سوف تتعلم أن الطبلية توضع

في باحة الدار.. وليس في العلية؟ ألف مرة علمناك ولكنك لم تتعلم..

وفيما كان يهبط السلم، كان يتذكر أن أباه قال له مرة إن الطبلية

يجب أن لا توضع في مكان رطب، بل يجب أن توضع حيث تطلها

أشعة الشمس، فذلك كفيلاً بإبقاء جلد الطبلية مشدوداً كفاية.

- يا ولدا! يا عزيزي! فقط قل لي، هل تستطيع أن ترى يدي

هذه؟

كانت يد أبيه خشنة مبسوطة عريضة، وكانت عروقها نافرة

زرقاء تنبض دائماً.. كان يمسك الطبله، ويقليبها بين كفيه، ثم ينقر عليها بسبابته، وكان هو يتربع أمامه، ويراقبه دون أن يفلت لحظة واحدة، كيف كان يلبس الشروال المطرز من طرفيه، تحت الجيبين مباشرة، وكيف كان يشد صدرته اللامعة المقلمة ذات الأزرار الصغيرة السوداء المرصوفة واحداً إثر الآخر.. ثم كيف كان يلف الحزام الأسود الطويل وكيف كان يعقد طرفه دون أن تظهر العقدة.. عندها فقط، كان يقوم إليه ويسأله:

- هل أستطيع أن أصحبك الليلة يا أبي؟

وكان أبوه يجيبه دون أن ينظر إليه:

- نعم.. يجب أن تأتي معي.. ولكن يجب أن تتعلم لا أن تتفرج..

ثم كان يلتفت إليه، ويركع أمامه ليمسكه من ذراعيه الصغيرتين:

- قل لي.. لو مت أنا غداً.. فمنن سوف تتعلم هذه الصنعة؟

ماذا سوف تشتغل؟ افتح عينيك جيداً هذه الليلة، وراقبني كيف

أشتغل.. يجب أن تتعلم! يجب أن تتعلم!

ولكنه لم يتعلم قط. لقد شاهد أباه أكثر من ألف مرة يمشي

في مقدمة الزفة. بل كان يمشي إلى جانبه تماماً، وكان ينظر إلى

يديه وخطواته، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يتعلم قط... كان العمل

في غاية الصعوبة، وكان لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يجيده

في يوم ما.. هل سيكون بوسعه أن يضرب هذه الضربات السريعة المحكمة فوق الطبلية الصغيرة بهذه الإجادة؟ لم يستطع قط أن يلاحق بعينه كف أبيه وهي تدور الطبلية من خلف ظهره، ثم بين ساقيه، ثم من وراء عنقه، في نفس الوقت الذي لا تكف الخيزرانة عن قرع الطبلية تلك القرعات المذهلة، ودون أن يكف والده عن الغناء ودون أن يرتج صوته في ذلك الرقص السريع العجيب..

- نريد أن نعالجك يا بني.. لماذا لا تجيب على أسئلتني؟ أنا لا أريد أن أؤذيك.. هل تستطيع أن ترى يدي.. هز رأسك فقط.. لا تتكلم. فقط هز رأسك. هل تراها؟

ولكنه لم يتعلم قط! كم مرة حاول أن يقوم بتلك الحركات أمام والده.. وكم مرة فشل وكان على وشك أن يبكي! مرة حاول أن يدور الطبلية خلف ظهره، ولكنها سقطت من يده، ودون أن يلتقطها، هرب إلى الغرفة المجاورة وأخذ ينتحب ثم سمع صوت أبيه:

- لا بد أن يكون هذا الولد غيبياً! لقد كانت صنعة أبيه، وصنعة جده، وصنعة جد جده.. فكيف يمكن أن يكون غيبياً إلى هذا الحد؟ لقد صرت عجوزاً على وشك الموت.. وابنك هذا لم يتعلم بعد كيف لا يسقط الطبلية من يده!

ولكنه رغم كل هذا، كان سعيداً للغاية، كان ينظر إلى يدي أبيه

وهما تعملان في كل عرس فيتصور أن هذا كله ضرب من السحر.. وأنه شيء من الإعجاز.. وكان فخوراً في الحي الذي يسكنه بأنه ابن ذلك الرجل الذي يحتاجونه في كل عرس، والذي يتكوم حوله شباب الزفة حينما يأخذون العريس إلى بيت العروس، يصفقون، ويشاركونه الغناء، ويثنون على براعته في ضرب الطبل بالخيرزانة من خلف ظهره، ووراء عنقه، وبين ساقيه، وكيف أن الخيرزانة لا تخطئ الطبل مرة واحدة، وكيف أن هذه الضربة لا تتأخر لحظة واحدة!

- حاولي أن تفهميه أنت.. لدي ألف مريض يجب مشاهدتهم، ليس هو المخلوق الوحيد في المستشفى!

وأحس بيد ناعمة تمسح على جبينه، وأتاه صوت امرأة، ولكنه ما زال صوتاً ملفوفاً بالقطن:

- لماذا لا تريد أن تقول لنا ماذا تشاهد؟ هل تستطيع رؤية وجهي؟

ليس يدري متى حدث ذلك ولكنه سمع أباه يقول لأمه، في الغرفة المجاورة:

- قالوا إن السيارات أفضل.. تصوري! منذ أن تزوج عبد المحسن، قبل خمسة شهور، حتى اليوم، وهم يقولون كل يوم في المقهى إن السيارات أفضل من الزفة.. هل تسمعين السيارات كيف

تنعق كالضفادع وهي محملة بالبشر كالسردين؟ إنه عار! عار كبير!
تصوري! يتزوجون بلا زفة، كأنهم يخجلون من الزواج.. اليوم قال لي
صاحب المقهى إن علي أن أفتش عن عمل آخر..

أحس هو، يومها، في الغرفة المجاورة بأن شيئاً سيئاً للغاية قد
حدث.. فقام من فراشه، واتجه إلى الباب، ثم شاهد أباه يجلس
متربعاً فوق الحصير، وكانت أمه تمسح جلد الطبلبة بالزيت، ثم
سمعه مرة أخرى:

- كنت أعتقد أن الأحياء الأخرى قد كفت عن استدعائي
للأعراس بسبب منافس آخر.. السيارات!، يا سلام! تصوري العريس
في السيارة كأنه يختبئ من الناس، هذا عيب، هذه فرحة العمر.
السيارات.. بيب.. بيب.. بيب.. ثم ينتهي العرس!

وعاد إلى فراشه بهدوء، وبقي كل الليل يحلم بالسيارات التي
تحمل العريس والعروس دون طبل ودون خيزرانة..

- اسمع! سوف نلقي بك إلى الشارع إذا لم تتكلم.. إنه ولد
لعين صدقوني، يفتح عينيه مثل قط، ثم ينظر إلينا ولا يقول شيئاً..
من هو أبوك؟

أبوه؟ خرج ذات يوم ولم يعد.. جارنا النجار محمد علي زوج
ولده ولقد حضر والده الطبلبة منذ الصباح، وعند العصر، قال لأمه إن

النجار محمد علي لم يدعه إلى العرس.. وعند المساء وصلت السيارات.. وحينما سمع والده زعيق أبواقها ورآها كبيرة تلمع كأنها مدهونة بالزيت، خرج إلى الشارع، وحاول هو أن يتبع أباه، إلا إن أمه منعتة، لقد سمعا جلبة هناك، ثم علا الصياح وكانت أمه تحدق من خصاص النافذة وتحول دونه ودون الوصول إلى الشباك ليرى، هو الآخر ما الذي يحدث. ثم تسلل إلى الباب، وشقه بهدوء كي لا تسمع أمه الصوت، وحينما مد رأسه شاهد مقدمة لامعة لسيارة سوداء وعجلة كبيرة، كانت واقفة أمام الباب مباشرة، ولما حاول أن يمد رأسه أكثر شاهد حجراً كبيراً يهوي فوق زجاج السيارة، واشتد الصياح فأغلق الباب وعاد أدراجه إلى الداخل..

وعند الصباح استطاع أن يسمع أمه تقول لزائرة أتها بصوت

خفيض:

- لقد أخذ يلقي بالحجارة فوق سيارة العرس، ثم جرحها بالخيزرانة واستدعى محمد علي النجار الشرطة بعد أن كاد يقتل السائق بخيزرانتة...

- إنه مصاب إصابة بالغة في خاصرته.. ولكن المهم أن نعرف مصير عينيه.. هناك إصابة أخرى في رأسه.. هل سيتكلم هذا الشقي أم ماذا؟

وأحس، مرة أخرى، باليد الناعمة فوق جبينه، ثم سمع صوت المرأة:

- هل شاهدت السيارة التي صدمتك يا عزيزي؟

السيارة نفسها! سيارة سوداء كبيرة تلمع كأنها مدهونة بالزيت، وعجلة ضخمة من مطاط متعرج مشقق، نعم، السيارة نفسها، وهو يعرف ذلك تماماً. السيارة نفسها ظلت تلاحقه منذ ضربها أبوه بالحجارة وحينما كان يسير في الشارع لحقته وضربته.. لكن لماذا فعلت السيارة ذلك؟ إنه لم يؤذها ... إنه لم يؤذها قط.. ولقد كان سائراً على الرصيف، لماذا فعلت ذلك..؟

- قل لنا يا عزيزي قل لنا.. هل شاهدت السيارة التي صدمتك؟

هز رأسك إن كنت شاهدتها!

لو كان أبوه هنا.. لو عرف أنها سيارة العرس نفسها، إذن لحطمها، ولكن ما الفائدة الآن؟ إنهم لن يعرفوا قط أن السيارة تعمدت ضربه: كان ماشياً على الرصيف.. لم ينزل إلى الشارع أبداً، هي التي صدمت الرصيف وصدمته، لو كان أبوه هناك، لو كان، هل سيقف مع هؤلاء ويقول له عد أصابعي؟ هل يضع وقته في سخافة كهذه؟

- ما هو اسمك؟ ما هو اسم أبيك؟ أين تسكن؟ تكلم...

لا فائدة.. إنه لم يستطع قط أن يتعلم.. حينما أسقط الطلبة

الصغيرة مرة كانت على وشك أن تنكسر، الطبلبة الآن موضوعة في العلية، لم تعد أمه تتركها في باحة البيت.. وأبوه لم يعد منذ ذلك اليوم..

- لماذا لا تريد أن تساعدنا أيها الصغير؟ لماذا لا تتكلم؟

إنه يود أن يساعدهم، ولكنه لا يحب أن يغادر هذا الخدر اللذيذ الذي يطوف عبر عروقه كوحل ساخن ثقيل. كم كان المنظر راعباً.. كان نائماً هناك والحجر المسنن يدخل في خاصرته، وحينما انقلب شاهد نقاط الزيت الأسود تتقاطر من مقدمة السيارة، ثم تزحف ببطء شديد صلب نحو بحيرة صغيرة من الدم كانت تمتد حتى أنفه.. ثم أغمض عينيه وكان يحس أن الأفعى السوداء ما زالت تزحف كي تشرب من البحيرة الحمراء..

- اتركوه ربما يريد أن يستريح قليلاً.. سوف نعود بعد قليل..

تسللت الأفعى السوداء، بطيئة قاسية كريهة، وغاصت في بحيرة الدم الصغيرة، ثم أخذت تلحق الشراب الأحمر بلسان رفيع طويل.

بيروت، ١٩٦٠

Twitter: @ketab_n

لو كنت حصاناً

- لو كنت حصاناً لأطلقت رصاصة في دماغك!

لماذا حصان؟ لم لا يكون كلباً، أو قطة، أو جرداً، أو أي شيء آخر إذا كان من الضروري أن يكون حيواناً ليجوز إطلاق الرصاص في دماغه؟

منذ أن بدأ يعي معنى الكلمات - لا يذكر متى بالضبط - وهو يسمع هذه الجملة من بين أسنان أبيه. لقد كان غريباً حقاً أن أباه كان الإنسان الوحيد في العالم الذي سمعه يتمنى لابنه أن يكون حصاناً، وحصاناً فقط. أما الشيء الأكثر غرابة فهو أن أباه لم يكن يتمنى لأي إنسان آخر، مهما بلغ خلافه معه وغضبه عليه، أن يكون حصاناً!

حسب، بادئ الأمر، أن أباه يكره الخيل، يكرهها أكثر من أي شيء آخر في العالم كله، وأنه لا يقول لأحد من الناس: لو كنت حصاناً

لقوستك، إلا حين يبلغ به الغضب كل مداه. وكان يحسب، بادئ الأمر أيضاً، أن أباه لا يكره إنساناً في العالم كما يكرهه هو، ولذلك بالذات لا يقول أبوه لأي إنسان عداه: لو كنت حصاناً لقوستك.

ولكن الأيام ما لبثت أن جعلته يستبعد هذا الاعتقاد السخيف كلية. ذلك أنه اكتشف أن أباه يحب الخيل، وأنه كان في يوم مضى ذا خبرة واسعة في هذا المجال، وأنه لم يهجر الخيل إلا لما هجر الريف.

في مرة واحدة فقط كان أبوه، على غير العادة، مرحاً بشوشاً، فانتهاز هو الفرصة واندفع قائلاً:

- لماذا تتمنى أن أكون حصاناً حينما تشتد بك رغبة التخلص مني؟

فقطب أبوه حاجبيه فجأة، وأجاب بصوت رصين:

- أنت لا تفهم هذه الأمور. هنالك حالات يصبح قتل الحصان فيها عملاً ضرورياً ومفيداً.

- ولكنني لست حصاناً!

- أعرف.. أعرف. لهذا أتمنى أحياناً لو خلقتك الله حصاناً.

قال أبوه ذلك ثم دور كتفيه العريضتين ومضى. ولكنه خطا واعترض طريقه، فوقف، ونظر أبوه إليه بإمعان وقاسه بعينه

الحادثتين. وحاول هو عبثاً أن يعرف ما يجول في خاطر أبيه:

- أتكرهني إلى هذا الحد؟

- أنا لا أكرهك.

- إذن ماذا؟

- أخاف منك.

وساد صمت قصير خلى بعده بين أبيه وبين الطريق. وحينما كان الأب يدور حول حنية السلم العريض أحس هو كم يحب والده، ذلك الشيخ المسكين الذي عاش معظم حياته وحيداً متوحداً. لقد شغل صباه بالخيل، ولكنه ما لبث أن هجر كل شيء فجأة. كانت زوجته قد ماتت بعد أن وضعت له ابناً حمله معه إلى المدينة. باع كل خيوله وكل المروج التي كان يطلق فيها العنان لها - خيوله «سمرة» و«بيضا» و«برق» و«سبع». لماذا فعل أبوه ذلك؟ ما خطر له يوماً أن يسأله، ولو فعل لما فاز بالجواب.

إنه يعرف أباه تماماً، ويعرف أن الماضي بالنسبة له صندوق من الخشب السميك، أغلق بألف قفل، ثم ألقيت المفاتيح في عتمة المحيط.

شغلته القصة مرة، فقرر أن يكشف عن خباياها في أول فرصة. وذهب والده إلى الريف ليزور من تبقى هناك من الصحب

والأهل، فصعد إلى غرفته التي لم يطرقها إلا قليلاً. ولأول مرة انتبه إلى وجود ذلك العدد الكبير من الصور التي تزين الجدران - صور خيول جميلة حقاً. وأدخل سكيناً في مفصلة الدرج وفتحه، ثم سحب دفترًا ذا غلاف جلدي أسود وغاص في المقعد.

كانت خيبة الأمل كبيرة. ليس ثمة في الكتاب ما يفيد، كله أرقام وأثمان وأسماء أنساب. أثمان خيل اشترت وبيعت، وأنساب خيل تمتد إلى مئة ومئات من الأعوام. فقط جمل مقطعة مكتوبة في حواشي الدفتر بلا اهتمام، كأنها شرود إنسان حالم.

«٢٠-٤-١٩٢٩ - قالوا لي أن أبيعته أو أن أقتله.»

وقلب الصفحات باهتمام. فقد خيل إليه أنه قد أمسك بطرف الخيط، وكان يخاف أن يفقده.

«١-١٢-١٩٢٩ - إنه أحسن ما عندي، ولن أفرط به. ما زالوا

ينصحونني بأن أقتله أو أن أبيعته.»

«٢٠-٣-١٩٣٠ - هذه خرافات مزعجة. "برق" هو أروع حصان

شهدته في حياتي وأهدأ حصان سمعت عنه. لن أقتله.»

وفي الصفحة الأخيرة كانت يد مرتعشة قد خطت الجملة

الأخيرة في تلك اليوميات العجيبة:

«٢٨-٧-١٩٣٠ - ألقاها عن ظهره بوحشية على شاطئ النهر ثم

حطم جمجمتها بحوافره وبقي يدفعها بقائمتيه الأماميتين حتى أسقطها في النهر. أطلق أبو محمد الرصاص في دماغه.»



قال أبو محمد: الحصان كان يجب أن يقتل عندما ولد.. وفي نفس اللحظة التي سقط فيها على القش. إن قتل الحصان بعد ذلك يصبح أمراً صعباً للغاية. الحصان حينما يعيش معك سنة وستين وثلاث سنين يصبح أخاً، وأكثر من أخ. هل يقتل الإنسان أخاه؟ أبوك، سامحه الله، لم يقبل، وقال إنه أجمل حصان رآه. قلنا: دائماً يكون هذا النوع جميلاً للغاية. ولكن هذا يجب أن لا يغش. قال: ولكنه حصان أصيل! قلنا: سوف يجعلك تخسر أكثر من ثمنه.. أبوك، سامحه الله، رجل عنيد. لم يقتل الحصان ولم يبعه ولم يتخلص منه. قلنا له: يا أبا إبراهيم، على الأقل لا تعتل صهوته. ولكنه، سامحه الله، لم يسمع!

- أنت لا تذكر أمك. كانت امرأة جميلة ومحبوبة، وكان أبوك، سهل الله له، يحبها حباً مجنوناً. لم نرَ في كل هذا المرج من أحب زوجته مثلما أحب أبوك. لقد كانت هي، رحمها الله، على شيء كثير من الجمال والفتنة، عاش معها على ما أذكر سنة واحدة وضعتك

في أواخرها قبل أن يطوح بها الحصان على حافة ذلك النهر.

- تسأل لماذا كنا نريد أن نقتل الحصان؟ هذا سؤال صعب يا بني! هذا سؤال لا يستطيع أن يجيب عليه إلا ذوو الخبرة والمعرفة، ولا يستطيع أن يفهم الجواب إلا ذوو الخبرة والمعرفة. أنا رجل عجوز، لماذا لا تسأل غيري؟

- أبوك لا يكرهك - أبوك يخاف منك - منذ كنت طفلاً لا تقوى بعد على حمل حجر صغير كان أبوك يخاف منك - ولو كنت مكانك لما سألته لماذا.



لماذا يخاف منه أبوه؟ لماذا أبوه فقط؟ كل رفاقه في المستشفى يعرفونه إنساناً مسالماً وديعاً. لم يقتل في كل عمره بقعة واحدة. لماذا لا يخاف منه أي إنسان سوى والده؟ لماذا لم يخف منه أي من المرضى الذين استسلموا لمبضعه وهم في غاية الطمأنينة؟ إن وجهه لا يحمل أي تعبير يبعث على الخوف، فلماذا يخاف منه والده؟ ولماذا والده من دون كل الناس؟

ذات ليلة طفح الكيل!

كان ينام في غرفته حينما سمع صيحة ألم حادة تنبعث من غرفة والده. فانطلق يصعد الدرج ثم اقتحم الباب ليرى والده يتلوى

فوق السرير. ولم يحتج إلى وقت طويل كي يكتشف أن التهاباً حاداً في الزائدة يعذبه، وأنه قد يفجرها بين لحظة وأخرى.

وفيما كان الممرضون يقتادونه فوق الحماله إلى غرفة العمليات، قال الأب مستفسراً:

- من الذي سيجري العملية؟

وأتاه الجواب من أحدهم:

- أحسن جراح في المدينة كلها.. ابنك.

وانتفض الشيخ فوق الحماله بعنف، وحاول أن يتخلص من الأيدي الممسكة به. ولما فشلت المحاولة بدأ يصيح بكل ما في وسعه:

- أي طبيب آخر، ولكن ليس ابني.. أي جزار آخر، ولكن ليس ابني.

- لماذا؟ إن آلافاً من العمليات مرت تحت أصابعه بنجاح. وتشنج فوق الحماله. كان الألم والرعب يأخذان معاً بخناقه، وصاح وهو يقاوم الغيبوبة بعنف:

- سوف يقتلني.. سوف يقتلني..

- أي هراء سخيف.

- هراء أو غير هراء.. لا أريد أن يدخل ولدي غرفة العمليات

حتى ولو أراد أن يتفرج.. لا أريده هناك.

كان من العبث أن يستمر النقاش، فهو يعرف والده أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر. ولذلك فرش ذراعيه مستسلماً، وعاد أدراجه إلى غرفة الانتظار.



قال الطبيب الذي أجرى العملية:

- صدقتي كانت عملية والدك أصعب عملية أجريتها في حياتي! يبدو أن التخدير الموضعي قد أثر عليه فانطلق، طوال العملية، يثرثر.

حكى والدك أشياء مضحكة لا يفهمها الشيطان نفسه! قال إن أبا محمد - ولست أدري من هو هذا المخلوق - إنسان محايد، لا عاطفة عنده، لذلك يستطيع أن يقتل حصاناً، على حين أن مالك الحصان لا يستطيع أن يفعل ذلك!

كنت أود أن تسمع كم يجيد والدك الحديث عن صباه. حكى عن أمك وعن جمال أمك - وهنا بكى قليلاً ربما بتأثير روائح الكحول التي انبعثت من الغرفة - ثم قال أنه يتحمل مسؤولية موتها مع «برق»، بالمناسبة - من هو برق هذا؟

وحكى والدك أيضاً عن حصان كان عنده منذ ثلاثين سنة. لقد ولد في ليلة عاصفة من أم أصيلة وأب صحراوي جلبه بدوي معه من قلب البادية. كان أجمل حصان في العالم، في نظر أبيك. كان ذا لون أبيض فضي صاف لا تشوبه أية شائبة. قال أبوك أنه لما رأى الحصان، قفز فوق الحاجز - وصف ذلك بدقة متناهية - وحاول أن يوقف الحصان على قوائمه. ولكن ما إن وقف الحصان حتى لاحظ الجميع أن بقعة كبيرة متعرجة من اللون البني الميال إلى الاحمرار تشغل كل جنبه الأيمن. قال أبوك أنه أعجب بهذه البقعة لأول وهلة، ولكن أبا محمد ما لبث أن صاح من وراء الحاجز: يجب أن يقتل هذا الحصان فوراً! وسأله أبوك حانقاً: لماذا؟ فأجاب أبو محمد: ألسنت ترى بقعة الدم هذه؟ هذه البقعة معناها أن الحصان سوف يكون سبباً في مصرع إنسان عزيز. إنه يحمل دم الضحية معه منذ ولادته، ولذلك يجب أن يقتل قبل أن يشتد عوده!

أراد أبوك، كما قال، أن يحطم الأسطورة فلم يقتل الحصان. قال إن الحصان كان سهل الركوب، وكان مطواعاً ذكياً، وإنه عاش في حظائره فترة طويلة دون أن يؤذي ذبابة.

لقد صمت أبوك هنا واستسلم إلى الرقاد. أتريد الحقيقة؟ فرحت بصمته أكثر مما فرحت بقصته. هذه الخرافات اجتذبتني

حتى كدت أضيع تركيزي، ولذلك عاد العمل إلى نصابه لما صمت!
هل سمعت عمرك عن مثل هذه الأسطورة؟ هل سمعت عن
الحصان الذي يحمل دم ضحيته على عنقه منذ ولادته؟ أبوك حكى
عن ذلك بإيمان صوفي؛ وأنا أعجب.. ألم تناقشه أبداً في أمر هذه
الخرزعبلات؟

كانت الشمس على وشك أن تشرق حينما انطلق عائداً إلى
داره. كان حديث زميله الطبيب ما زال يدور في رأسه.
إذن هذه هي القصة! هذه هي قصة الكراهية التي يحملها
أبوه منذ ثلاثين سنة! لذلك بالذات يخاف منه أبوه، ولذلك بالذات
يتمنى لو كان حصاناً يطلق رصاصة في دماغه!
هذه هي القصة إذن!

البقعة البنية، الميالة إلى الحمرة والتي تشغل متعرجة جزءاً
كبيراً من جنبه الأيمن وظهره.. بقعة، كتلك التي شغلت جنب «برق»،
دم الضحية كما تقول الخرافة.. البقعة التي قالت له فتاته يوماً وهي
تداعبها: أكبر شامة رأيتها في حياتي - ولكن لماذا تميل إلى الاحمرار
كأنها بقعة دم؟ هذه هي إذن! أبوه المسكين يخافه لأنه يحمل منذ
ولادته دم ضحيته على جنبه كما حمل «برق» دم أمه سنوات قبل أن
يلقيها، ويحطم جمجمتها، ثم يدفع بها إلى النهر.

هذا إذن ما عذب أباه ثلاثين سنة وهذا ما جعله يتمنى لو كان ابنه حصاناً كي يكون له حق إطلاق رصاصة في دماغه!

أسطورة سخيفة تقضي على حياة الناس. سخر عاش فيه أبوه ثلاثين عاماً. سد من الرعب قام بين الأب وابنه. لماذا؟ لأن أبا محمد لا يعرف التفسير الطبي البسيط الذي يكمن وراء هذا اللغز المحير.. بقعة بنية ميالة إلى الاحمرار.. لأن أباه..

وقف فجأة في منتصف الطريق وفكر: أبي، أبي حاول أن يقضي على هذه الأسطورة، أراد أن يتحدى الخرافة. فماذا كانت النتيجة؟ يبدو أن أبا محمد هو الذي انتصر. لقد خسر والدي المعركة وكان الثمن باهظاً.

بقعة بنية تميل إلى الاحمرار. نحن نعرف تفسيرها، ولكننا لا نعرف لماذا هي هنا وليست هناك.. أليس من الممكن أن تكون علامة؟ علامة من نوع ما؟ لقد قال أبو محمد إن أمي كانت تجيد ركوب الخيل وتجيد معاملتها. لماذا قتلها «برق» إذن؟ لماذا أصر على تحطيم مجتمها ثم دفعها إلى النهر بلا سبب؟ لماذا هذا الإصرار على قتلها؟

أبو محمد كسب المعركة، وأبي المسكين خسرها وخسر شبابه معها. ولكنه، أبي المسكين، يخوض معركة أخرى الآن - معركة معي

- من منا سيكسبها.

سار قليلاً، ثم عاد فوقف. كان خاطر مرهق قد انفجر في رأسه!
سلمت الجراحة لذلك الطبيب الثرثار الفضولي بملء ارادتي..
لمجرد أن هذيان المريض قد آلمني. أياكون قد قتله بإهماله
وانصرافه إلى الاستماع؟ إذا كان قد فعل، فالقاتل أنا. كان بوسعي أن
أجري العملية على أكمل وجه، ورغم أنف العجوز المسكين! ما
الذي ارتكبته أيها الغبي؟

وقف هنيهة، ثم استدار وأخذ يركض عائداً إلى المستشفى.
كانت الشمس قد بدأت تشرق، وكان يقرع بلاط الشارع المبلول
بقدميه الكبيرتين فيرجع الصدى وكأن خبب حسان.

بيروت، ١٩٦١

نصف العالم

مهما يكن... فإن السيد عبد الرحمن لم يكن يهتم بتاتاً بكل الذين كانوا يضحكون عليه سواء في المقهى، أو في المدرسة.. كان رجلاً طويلاً، طويلاً جداً، وكان إلى جانب طوله يتمتع بصحة لا بأس بها، يأكل كثيراً وينام كثيراً.. وكان يعتبر كلا الأمرين متعة من متع الحياة التي لا يستغنى عنها أبداً. وفي أحيان كثيرة كان يمضي شوطاً أبعد في التطرف فيصرح بأن الله إنما خلق الإنسان من أجل أن يأكل وينام.

- والمرأة؟

هكذا سألته أمه مرة.. وكان هو يعرف تماماً إلى أي شيء يرمي السؤال.. إلا إن الأمر كله لم يكن يهمله على أي حال وكان ينقر على الطاولة بأصابعه، ويغلق عينيه نصف إغلاق كي يتحاشى دخان اللفافة الرخيصة التي كانت تتدلى على طرف شفته السفلى ويقول:
- كلا.. التدخين يأتي ثالثاً.. ثم المرأة..

مهما يكن.. فإن السيد عبد الرحمن لم يكن يعتقد أنه نصف مجنون كما كانوا يقولون عنه: أمامه أو وراءه. ويوماً إثر يوم لم يعد يهمله الأمر. مرة واحدة حاول أن يتصدى لرجل قال عنه إنه نصف مجنون وحينما استوقفه وأنهى عتابه معه قال الرجل ببرود:
- إذن فأنت، على هذا، نصف عاقل..

وانتهى الأمر بهذه الصورة.. كان يمكن للسيد عبد الرحمن أن يبقى كل عمره على هذه الشاكلة، رجلاً نصف مجنون أو نصف عاقل يتسلى به الأصدقاء حينما يكون حاضراً ويضحكون عليه حينما يكون غائباً.. كان يمكن للسيد عبد الرحمن أن يقطع حياته ذهاباً وإياباً دون أن يكون شيئاً يستحق الذكر.. لولا أن قفز ذات يوم إلى مرتبة أخرى عن طريق حادث وقع له.

ما من أحد يستطيع أن يؤكد الآن كيف وقع له ذلك الحادث فأصدقاؤه يقولون إن الحادث وقع عمداً وقصداً.. ولكن أهل داره يقولون إن الحادث إنما وقع بالصدفة... ولقد أكد كل طرف مع مر الأيام وجهة نظره دون أن يكون لعبد الرحمن نفسه أي رأي بالموضوع، حتى إن عداً عجبياً نما بين أصدقائه وأهل بيته أدى إلى جعل الموضوع كله قضية لا يتنازل أي طرف فيها قيد شعرة عن اعتقاده..

وهكذا فإن السيد عبد الرحمن صار، فيما بعد، قضية قائمة بذاتها. صحيح أن أصدقاءه بدأوا هذه القضية كنكتة طريفة إلا إن الموضوع كله تطور بشكل مغاير فيما بعد..

دعونا نعود للحادث منذ بدئه فنوجزه، ذلك أن الحادث بالذات ليس هو كل شيء.

كلا... إنه لمن الأفضل أن نتابع القصة كما تروى بين أصدقائه في المقهى ثم كما ترويها أمه في البيت..

يقول أصدقاؤه إن عبد الرحمن كان جالساً في غرفته ذات مساء يحاول أن يكتب رسالة - والسيد عبد الرحمن كان يكتب كثيراً من الرسائل الطويلة، وكان في نهاية الأمر يرسلها إلى نفسه ويقرأها بإمعان - كان يكتب واحدة من تلك الرسائل حينما طرأت له فكرة ما لبث أن كتبها، والفكرة غير مفهومة تماماً. وكان أصدقاؤه يقولون إنه من الأفضل أن تروى بأمانة، وكانوا قد حفظوها عن ظهر قلب:

- لقد أعطانا الله عينين لنرى بهما.. ولما كان العالم قد فلت من بين أصابع الله فإن عيناً واحدة تكفي تماماً. لقد واصل السيد عبد الرحمن شرح فكرته ولكن بكلام غير مفهوم وكان خطه يدل على مبلغ اضطرابه، ثم طوى الرسالة وتوجه إلى المغسلة حيث استطاع بجرأة نادرة أن يفتح إحدى عينيه بذات القلم الذي كتب به

الرسالة. هكذا تروى الحادثة على السنة أصدقائه..

أما أهل بيته فيروونها بشكل مغاير، تقول أمه إنه كان في الحديقة وكان يعنى بشجرة تفاح زرعتها صغيراً... ولقد شاهد ذلك الصباح فرعاً جافاً ميتاً فحاول انتزاعه إلا إن الغصن الصغير كان مشدوداً بقوة إلى الشجرة الفتية، ولما كان السيد عبد الرحمن عنيداً فإنه استمر يشد الفرع بضراوة، وفجأة انسلخ الفرع بعنف ودخلت مقدمته بعينه فاقتلعتها...

وعلى أي حال فإن هاتين الروايتين وإن كان لهما بعض الأهمية فإنهما لا تستأثران بها كلها، ذلك أن ما حدث فيما بعد كان أكثر غرابة.

لقد حمل السيد عبد الرحمن إلى المستشفى وأجريت له عملية جراحية خطيرة.. ولحسن الحظ أن العملية نجحت نجاحاً شبه كامل، لقد استطاع الطبيب أن يوقف النزيف وأن يمنع الالتهاب وأن يقلل التشويه قدر الإمكان إلا إنه لم يستطع أن يعيد البصر إلى تلك العين أبداً.. وفي الأيام التي تلت لاحظ أهل السيد عبد الرحمن أمراً غريباً، وهنا بالذات انتقل عبد الرحمن من مرتبة إلى مرتبة أخرى وأصبح «مسألة»: صار يشاهد نصف الأشياء فقط. فهو حينما ينظر إلى رجل جالس على كرسي كان لا يستطيع أن يشاهد إلا

الرجل واذا تطلع إلى الكرسي فهو لا يستطيع أن يرى الرجل الجالس فوقها.. وكانت الظاهرة حتى بالنسبة لأهله طريفة جداً بادئ الأمر، فحينما كانت أمه تدخل الغرفة مع أخته كان لا يستطيع أن يشاهد في الوقت الواحد إلا واحدة منهما وكان يسألها عن الأخرى. وقد شرحت أمه الحادثة لإحدى الجارات قائلة أنها تعتقد أن ولدها ما زال واقعاً تحت تأثير المخدر الذي استعمله طيبب جاهل أثناء إجراء العملية الجراحية، والذي كان يوشك يومها أن يودي بحياته. وكما يحدث في كل زمان ومكان نقلت الجارة الكلام إلى جارة أخرى، حيث تولت الأخيرة نشره في أرجاء الحي كله صعوداً ونزولاً.. ومضت أيام كثيرة إلا إن السيد عبد الرحمن على عكس ما توقعت أمه لم يتحسن بل زاد تطرفاً في الأمر، وبعد عام واحد تقريباً لم يعد أي إنسان قادراً على إقناع السيد عبد الرحمن بأن الكرسي ما زال مكاناً لجلوس رجل كما كان قبل الحادث وأن الذي دخل الغرفة اثنان..

وفي المقهى قال طالب جامعي للأصدقاء بأن السيد عبد الرحمن إذا بقي على هذه الصورة فإن تبديلاً أساسياً سوف يحصل عنده ليس فقط في عالم الأشياء المادية بل في عالم الأفكار. وأثبتت الأيام التالية ذكاء ذلك الطالب، إذ إن تحولاً كبيراً طرأ على

أفكار السيد عبد الرحمن، ولم تعد نظرتة للأشياء المادية تستأثر
بدهشة الناس بقدر ما كانت أفكاره العجيبة تفعل ذلك. أصدقاؤه
يقولون إنه لم يعد بوسعه أن يرى إلا نصف الحقيقة، وهنا لا
يستطيع أي واحد منا أن يوافق، فعبد الرحمن نفسه كان يقول إنهم
هم الذين يقسمون الحقيقة، أما هو فإنه يراها كاملة..

لقد وقف الطب عاجزاً هنا، وقال طبيب أجنبي إنه لا يوجد أي
حل، ذلك أنه حينما أنهى فحص السيد عبد الرحمن أخذ يصف له
دواء، إلا إن عبد الرحمن رفض أن يستمع، وقال للطبيب:

- أنت تعطي الدواء للمريض أو للمعافى؟

- للمريض طبعاً..

- إذن لماذا تعطيه لي؟

- لأنك مريض..

- إذا كنت مريضاً فكيف تثق أنني سأتبع نصائحك؟ أنت

تخاطب معافى.. ولذلك فأنت تخاطبه بكل هذه الثقة.

وهنا تطورت المسألة أكثر..

فلقد قال لأصدقائه ذات يوم، وكانوا يتحدثون عن مبلغ حزن

صديق لهم رسب في الامتحان، قال لهم:

- إن هذا كذب، فليس ثمة في العالم شيء اسمه حزن، وأنهم

لا يستطيعون إلا أن يكونوا أغبياء، فلا يوجد في الواقع إلا الفرح.

ومضى يؤكد رأيه فقال لهم:

- إن الفرح وحده هو الموجود وإذا كان الفرح موجوداً فهذا

يعني أنه لا يوجد سواه..

- وإذا ماتت أمك يا عبد الرحمن.. ألا تحزن.

هكذا سألوه محاولين إقناعه، لقد فكر قليلاً ثم قال:

- أُمي لا تموت..

- كيف؟

- لأنها لم تمت قبلاً..

- لو افترضنا أنك ذهبت الآن إلى داركم فوجدتها ميتة ماذا

ستفعل؟

- لا شيء.

- ألا تحزن؟

- أحزن؟ كلا.. لقد ماتت وهذا يعني أنها لم تعد حيّة، ولذلك

فإن الحزن لا مبرر له وغير موجود..

- ولكن أمك كانت حية وماتت، ألا يختلف الأمر؟

- كلاً طبعاً حينما تكون ميتة فهي غير حية إذن - وهكذا فإنه

لا يوجد إلا شيء وكل شيء آخر وهم..

وكان من العبث أن يستمر أصدقاؤه بالإقناع، ذلك أنه لم يكن بالمستطاع جعله يفكر بأمرين معاً أو يرى الأمرين معاً، ولا شك أن أصدقاء المقهى دون أن يشعروا كانوا يدفعون به إلى موقف أشد تطرفاً ولقد صارت قضيته دون أن يشعروا أيضاً شغلهم الشاغل وصاروا يعدون لمواجهة آراء مجمعة يقذفونها بوجهه فور أن يستوي على كرسي المقهى وكان يرد لهم آراءهم ببساطة دون أن يبدو عليه أدنى تأثر..

وأخيراً لم يعد باستطاعة أصدقائه أن يوقفوا انفجارهم.

- لماذا لا تفكر مثلنا؟ مثل كل الناس؟

صمت قليلاً ثم قام عن كرسيه ومضى، ولكنه قبل أن يجتاز

الباب التفت من جديد وقال:

- حينما تتكلمون أستمع إليكم وأصدقكم، ولكن لما أبدأ الكلام

تختفون، حينما تكونون أنتم ليس بوسعي أن أكون وحينما أكون أنا

ليس بمقدوركم أن تكونوا..

لقد حدقوا إليه بإمعان وكانوا مذهولين تماماً، وعندها عاد

فاتكأ على الطاولة وقال:

- إن العالم كله يجب أن يكون مرتباً، فإذا وجد أي شيء فإنه

من الطبيعي أن تكون بقية الأشياء غير موجودة.

كان ما زال متكئاً على الطاولة حينما صاح به أحد الجالسين:

- على أي شيء تتكئ أنت الآن..

- على الطاولة.

- إذن؟

- الطاولة شيء تافه كما ترون ولكنني حينما أفكر بها أنسى

نفسي وحينما أفكر بنفسي أنساها.. كيف باستطاعتكم أن تفكروا

بالأميرين معاً؟ ألا تبدو لكم الأفكار إذا كانت كذلك غير طبيعية

ومتعبة؟ إن واحداً منا فقط، أنا والطاولة يجب أن يكون موجوداً في

الوقت الواحد.

- ولكن إذا حركنا الطاولة وقعت أنت.

- ذلك لأنني أكون غيباً إذا اتكأت على شيء غير موجود.

وكانوا يقولون له:

- شيء غريب حقاً ألا تقبل أن تكونا موجودين معاً، لماذا لا

تكون أنت والطاولة موجودين في وقت واحد؟

- لأنه غير صحيح: لأنهما غير موجودين معاً ولأن تفكيري أنا

أدعى إلى الراحة...

ومع مرور الأيام كان السيد عبد الرحمن يزداد تمسكاً بآرائه...

وكما يحدث دائماً حينما يواجه المرء بكثير من المعارضين انصرف

السيد عبد الرحمن إلى التبشير بتلك الأفكار، وهكذا فإنه استطاع أن يدفع بأصدقائه إلى التفكير بطريقة أخرى.

- هل هذا مرض أم فلسفة؟..

كان من العيب أن يقتنع، وكان من العيب أن يفهم أصدقاؤه الذين صاروا يشفقون عليه، إلا إن بعض الأصدقاء بدأ يدافع عنه.. كانوا يتصورون أنه يعيش في عالم مرتب وغير مربك وهادئ وكانوا يتمنون لو يستطيعون أن يفقدوا عيناً كي يصبح عالمهم مرتباً مثل عالمه، إلا إن بقية الأصدقاء لم يياسوا من إصلاحه رغم كل شيء، وهكذا فإنهم انتظروا طويلاً كي تصل رسالة باسمه إلى المقهى. ولما كان أصدقاؤه يعرفون أن هذه الرسالة منه وإليه كالعادة فلقد اقترح عليهم أحدهم أن يأخذوا الرسالة ويخفوها حتى إذا ما سأل عنها ذات يوم بدأوا معه النقاش من جديد. ولما كانت الرسالة في حوزتهم فإنهم سوف يدمرون ذلك العالم المرتب الذي يعيش فيه من دونهم... إلا إن عبد الرحمن لم يسأل قط عن رسالته ولقد مر حوالي الشهرين دون أن ينظر إلى لوحة الرسائل في المقهى مستفسراً.. وأخيراً قرر الأصدقاء أن يقرأوا ما فيها وتحلقوا حولها ثم فتحوها.. لم يكن فيها إلا جملة واحدة: إن الحياة صعبة جداً إذا كانت للجميع...

هذا هو كل شيء، لقد انتهت القصة ولم يبقَ ليقال إلا شيء

واحد..

السيد عبد الرحمن ما زال على قيد الحياة وما زال يؤمن بأرائه

تماماً..

ولقد شوهد آخر مرة يمشي في الشارع العام، كان يطوي كفيه

خلف ظهره وكانت السيارات تمرق حوالبه بجنون وهوس ولكنه

كان يمشي بهدوء، وكأن واحدهما - هو أو السيارات - غير موجود.

بيروت، ١٩٦١

Twitter: @ketab_n

الشاطئ

كان الراهب الشاب على وشك أن يمضي إلى غرفته حين لمحها تطل برأسها من باب الكنيسة وتدور بصرها في القاعة الفسيحة، ثم تعود فتقف على رأس السلم الحجري العريض.

كان الوقت عصراً، وكانت السماء قد أمطرت قبل قليل فبللت الدرج وغسلت قرميد السقف وأعطت الأشجار الكبيرة في حديقة الكنيسة لوناً متوقداً، وكانت نتيجة ذلك كله أن اكتسى الجو بطابع جديد تماماً، ولكنه طابع متعب، ولا شك أن أولئك الذين كانوا يعتزمون الخروج من بيوتهم للتسكع أو الجلوس في المقاهي، أو زيارة الأصدقاء، قد فضلوا البقاء فيها، وهكذا فقد وصل النهار إلى نهايته قبل مواعده العادي، وخلا الشارع الطويل الذي تقع الكنيسة على مدخله الشمالي من المارة الذين اعتادهم في مثل هذا الوقت، وكان سواده النظيف يلتمع إلى ما لا نهاية، عاكساً صور الأشجار

العارية المصطفة على جانبيه فوق برك واسعة من الماء خلفها المطر، راكدة، إلى جانب الرصيف.

مشى الراهب بين صفوف المقاعد إلى الخارج، كان قد انتهى لتوه من مراسم زواج، وحين خرج العروسان والحضور عاد كل شيء إلى صمته وهدوئه وعاد إليه - في الوقت ذاته - إحساس عميق بأن الجو كله يجثم فوق صدره. لم تكن به رغبة العودة إلى قراءة الكتاب الذي تركه قبل وصول العروسين، وفي تلك اللحظة بالذات لمحها تطل من باب الكنيسة ثم تعود فتقف على رأس السلم الحجري، فلحق بها، وحين وصل إلى الباب كانت قد نزلت بعض السلم: كانت تلبس ثوباً فاتح الزرقة وقد لفت عنقها وكتفها بشال أبيض خشن، وكان صوت حذائها يقرع بلاط السلم بصوت أجوف جعله يعتقد بأن مقاسه أكبر من مقاس قدميها، وليس يدري لماذا قال لنفسه بأنها قد استعارته من مكان ما.

- هل أستطيع أن أخدمك، يا سيدتي؟

وقفت المرأة في مكانها دون أن تلتفت، وفي اللحظة نفسها رد الصدى صوته فأحس بخلو الشارع وبكثافة الجو، وتساءل، في ذات نفسه، عن السبب الذي يحمل مثل هذه المرأة على القدوم إلى الكنيسة وحيدة وفي مثل هذه الساعة، إلا إن المرأة بقيت واقفة

في مكانها دون أن تلتفت، فكرر بصوت خفيض:

- هل هناك ما أستطيع أن أقدمه لك، يا سيدتي؟

دارت حول نفسها ببطء وحين واجهته تماماً لاحظ ملامحها المتعبة، كان وجهها مغضناً إلا إنه كان قد زين ببراعة ووقار، وكان الثوب الأزرق مغلقاً حتى أعلى العنق وقد تراخى الشال الأبيض الخشن أمام الكتفين حتى الساعدين، كانت تحمل في كفيها المعروقتين باقة صغيرة من ورد أبيض تشدها إلى صدرها، وخيل للراهب أنه أمام امرأة لديها الكثير لتقوله..

قالت بصوت هادئ كأنها تتابع حديثاً بدأ بينها وبين نفسها:

- لقد لبست ثوب العيد.. إنني لم ألبسه منذ توفي فارس..

- إنه ثوب جميل يا سيدتي.

قال الراهب ذلك وهو يكتف كفيه داخل كفيه ويغمض عينيه

باستسلام، ومضت المرأة تقول كأنها لم تسمعه:

- ورغم ذلك فقد انتهى كل شيء، قبل أن أصل إلى هنا!

- أي شيء يا سيدتي؟

فتحت فمها لتتكلم إلا إنها عادت فشدت شفيتها إلى بعضهما بإصرار، وامتلات عينها بالدمع فجأة وحين لم تستطع التغلب على دموعها لوحت بيدها إشارة مبهمة إلى داخل الكنيسة..

هز الراهب رأسه وابتسم مشجعاً ثم خطا خطوة فنزل درجة من الدرجات العريضة المبتلة: كان يفكر بدفعة كبيرة من الأمور مرة واحدة، وكانت أفكاره تشغله عن ملاحقة حديث المرأة وإشاراتها، إلا إنه - على أي حال - كان يعتزم مساعدتها حقاً.

- كلا يا سيدتي، لم ينته أي شيء هنا، الكنيسة موجودة دائماً يا سيدتي.. أنت تريدين الاعتراف أليس كذلك؟

ارتدت المرأة خطوة إلى الوراء كأنها فوجئت بلطمة لم تتوقعها. وشدت على باقة الورد بين كفيها وقالت:

- أعترف؟ لماذا؟ لا! أنا لم أجيء لكي أعترف.. نظرت إلى الأرض قليلاً ثم رفعت رأسها ونظرت مباشرة في عينيه:

- لا! على غيري أن يعترف، غيري.. أنا لم أجيء لمثل هذا الأمر..

- إذن لماذا جئت؟

- جئت أحضر الزواج.

- أنا آسف أن الزواج فاتك، لقد تأخرت عشر دقائق على الأقل..

- كلا! أنا لم أتأخر، لقد سألت عن الموعد أكثر من مرة، أكثر من

عشر مرات، وجهدت لأكون هنا قبل الزواج بخمس دقائق، وها أنت

تري، لقد تزوجت دون أن أكون هنا فضاع علي العرس مرة أخرى.

رفع الراهب الشاب رأسه إلى السماء الرمادية وتنفس الهواء النقي ملء رئتيه ثم أجال بصره في الشارع الطويل الممتد إلى ما لا نهاية. كانت - هناك - قطة بيضاء صغيرة تحاول اجتياز الشارع، إلا إن بركة من الماء كانت تحول بينها وبين الوصول إلى الرصيف، وكانت القطة الناصعة البياض قد تدبرت أمرها حتى حافة البركة بالقفز فوق مجموعة متفرقة من الأحجار المنتثرة على مسافات متباعدة، بين الرصيفين، ووقفت هناك تتناول بعنقها مستكشفة ما حولها، وفي كل مرة كانت تمد يدها إلى الماء كانت ترتد عائدة إلى الورا خطوة، داخله في نفسها، متحفزة من جديد..

- كان بوسعي أن آتي في أي وقت، ليس ثمة ما يشغلني، أنت تعرف، أنا امرأة عجوز أعيش وحيدة تماماً منذ توفي فارس، لقد كنت على استعداد للحضور في أي وقت، كنت قد جهزت ملابس لي ليلة أمس: نشرتها في الهواء ثم كويتها في الصباح وارتديتها قبيل الظهر ووقفت أمام النافذة أنتظر وأنا أحرق إلى الساعة، ورغم ذلك..

- أهي قريبتك؟

- مَنْ؟

- العروس؟

أعرفها..

- لا تعرفينها؟

مرة أخرى دارت القطة الناصعة البياض حول نفسها، إلا إنها عادت إلى وضعها السابق، وفكر الراهب الشاب في خطة القطة، تراها ماذا ستفعل الآن؟ ولماذا تريد عبور الطريق؟ في تلك اللحظة مدت القطة ساعدها، وحين لمست الماء ارتدت إلى الوراء وطفقت تفكر من جديد.

- لقد أخرجت الثوب من الصندوق ليلة أمس، إنني لم ألبسه منذ توفي فارس، هو الذي اشتراه لي، وكنت قد أقسمت بعد وفاته أن لا ألبسه أبداً، ولكن الأمر يختلف الآن، أنت تعرف، يجب على الله أن لا يعاقب أولئك الذين يحنثون بالقسم لأن المرء لا يعرف ماذا تخبئ له الأيام، وهأنذا قد تخلفت عن الموعد رغم كل شيء، كأن الله يريد معاقبتي، كأن...

نظرت فجأة إلى باقة الورد الأبيض في كفيها ومضت تهز رأسها بأسى، ثم رفعتها إليه:

- ... ولقد اشتريت ورداً أبيض أيضاً! هل تتصور ذلك؟ اشتريت ورداً أبيض! منذ أبكر الصبح وأنا أطوف في السوق لأعثر على هذه

الباقه.. أوتدري كم دفعت ثمنها؟

هز رأسه متسائلاً، ولاحظ أن دموعها قد بدأت تسيح على

خديها:

- منذ أربعة أيام لم أتناول طعام الغداء لأوفر ثمن هذه الباقه،

هل تصدق؟ إنه لمن العار أن يأتي المرء إلى عرس دون أن يحمل

شيئاً بيده، ثم ماذا؟ أنت ترى الآن، لقد تزوجت قبل عشر دقائق

دون أن أكون هنا..

تلقت الراهب حوالبه محتاراً، كان غير قادر على فهم أيما

شيء، ثم سأل بلطف محاولاً أن لا يسيء إلى دموعها:

- قلت إنك لا تعرفينها..؟

- لا، لا أعرفها، ربما أكون قد شاهدتها مرة أو مرتين فقط...

مد الراهب بصره إلى الطريق، كانت القطة ما تزال واقفة في

مكانها حائرة، لقد أعطاه لونها الأبيض المثبت على كل تلك الخلفية

السوداء للطريق الخالي شعوراً حاد المرارة بالوحدة والغربة، وفي

اللحظة التالية اكتشف أن القطة إنما تريد الوصول إلى البقعة

الجافة الوحيدة في الشارع، وكانت تلك البقعة تقع تحت شجرة لم

تسقط كل أوراقها بعد..

- إذا كنت لا تعرفينها فلماذا تريدين مشاهدة إكليها؟ لماذا

اشترت الورد إذن؟

أسقطت المرأة ذراعيها على جنبها فتدلت باقة الورد من كفها

وبدت - وهي مقلوبة - أن لا قيمة لها:

- إنها صديقة ابنتي، صديقتها منذ الطفولة..

ترقب أن تكمل، إلا إنها صمتت وتركت دموعها تنهال على

خديها بلا هوادة، وحاول هو أن يخفف من حزنها:

- هل تشكو ابنتك شيئاً؟

- كلا، إنها سعيدة جداً مع زوجها..

- شكراً لله، لماذا البكاء إذن؟ إذا كان زوجها رجلاً طيباً،

وكانت...

- أنا لا أعرف زوجها، لم أقابله قط؟

- كيف؟

نظرت إليه دون أن تكف عن البكاء، ثم عادت فحدقت إلى

باقة الورد المقلوبة وأخذت تهز رأسها:

- لقد سافرت قبل خمس سنوات إلى البرازيل، وتزوجت هناك..

لم أحضر عرسها ولم أر زوجها منذ ذلك الحين، لا شك أنك تستطيع

أن تفهم ذلك، لقد أنشأتها ورببتها كما أراد الله وأراد أبوها وأرادت

هي، وحين تزوجت لم أكن هناك، لم أشهد عرسها، بل إنها لم ترسل

لي صورة العرس..

لم يدرِ ماذا يتعين عليه أن يقول، ولكنها كانت واقفة هناك تبكي وتهز الباقة البيضاء بإحدى يديها وتمسح دموعها بطرف شالها، وبعد لحظة لم يجد بدأً من قول أول كلمة خطرت على باله:
- لقد كانت بعيدة.

- نعم، كانت بعيدة، ولكن ماذا يعني ذلك كله؟ لقد عشت أنتظر ذلك اليوم طوال عمري، حلمت به كل ليالي: أن أقف إلى جانبها تحت سقف الكنيسة العالي وأراها تخطر أمامي مع عريسها.. أنت تعرف كل هذه الأمور.. أنت تعرف..

- ألا تكتب لك؟

- طبعاً! كل ستة شهور مرة، أنت تعرف، إنهن لا يفكرن بأمهاتهن بعد ذلك، لقد عرفت صدفة، قبل أسبوعين، أن صديقتها ستتزوج وعرفت موعد الزواج، سألت عنه أكثر من عشر مرات كي لا يفوتني.. وهأنذا قد تأخرت عشر دقائق فضاع علي العرس مرة أخرى.

- مرة أخرى؟

ولكنها لم تسمع، لقد استدارت وبدأت تهبط درجات السلم فيصدر حذاؤها ذلك الصوت الأجوف. وقال الراهب في ذات نفسه وهو ينظر إلى شعرها الأشيب: لقد حسبت أنها تريد أن تعترف..

كانت غيوم سوداء قد بدأت تصعد إلى السماء من خلف الجبل متراسة مسرعة، وعرف أنها على وشك أن تمطر مرة أخرى، لقد سقطت نقاط كبيرة من الماء وشاهدها تشكل دوائر مسلسلية في برك المياه المتناثرة إلى جانب الرصيف، عندها فكر في القطة البيضاء، وحين نظر إليها كانت قد بدأت تتحفز: فرشت ساعديها وطوت ساقها فمس بطنها الأرض وأخذت تهز جسدها بارتقاب مهتاج وتضرب الأرض المبتلة بذيلها، وفي اللحظة التالية قامت بقفزة واسعة، إلا إنها لم تستطع أن تجتاز البركة فسقطت في ربعها الأخير وأخذت تضرب الماء بأطرافها محاولة الخلاص، كانت البقعة الجافة تقع على بعد ذراع واحد فقط، ورغم ذلك فقد كانت تبدو بعيدة جداً بالنسبة للقطة البيضاء التي كانت تقاوم الغرق بصخب وجنون، فيما بدأت الأجواء تقصف بالرعد..

بيروت، ١٩٦٢

رسالة من مسعود

قال لنفسه: ستقول لي بعد هنيهة إنه موعد العشاء، هيا بنا.
كانت زوجته جالسة أمامه مباشرة وكان منهما في قراءة
جريدته، ليس يدري لماذا يتعين عليه أن يمسك بالجريدة، دائماً
في مثل هذا الوقت، وينهمك في قراءتها.. إنه في الواقع لا يقرأ
شيئاً، يعلق عينيه في السطور السوداء ثم يطير مع أفكاره إلى ألف
عالم بعيد، واسع للغاية، ولكنه بغير مسافات..

- إنه موعد العشاء، هيا بنا.

طوى جريدته ورماها فوق الكرسي وتبع زوجته إلى المطبخ
حيث اعتادا أن يتناولوا عشاءهما، كانت الخادمة قد أعدت كل شيء
بمنتهى الاعتناء والنظام، سحب كرسيه وفكر: لا بد أن يكون الشاي
بارداً، أو خفيفاً، سوف تلاحظ ذلك الآن.. جلس بهدوء وانتظر.

- أيها الشيطانة البشعة... إبريق الشاي يكاد يتجمد برداً.

ابتسم ابتسامة خاطفة وفكر: الآن يجيء دور الخادمة، هذه

المسكينة.

- إننا ندفع لأبيك ثلاثين ليرة شهرياً.. إلا إنك لا تستحقين أكثر من ثلاث ليرات!

مد يده إلى صحن الخبز فتساقطت الأفكار في رأسه: سوف تشتم الفران الآن.. أما بائع الفواكه فإنه إنسان طيب، لقد نسيت أن تكتب شكوى للبلدية كي تراقب ميزان اللحام الخبيث الذي ألصق في أسفل إحدى كفتيه قطعة نحاس كبيرة... الجيران، فوق، ينقلون أثاثهم كل يوم ويا ليتهم يرفعونه عن الأرض!.. كلا! إنهم يجرونه جراً رغم أنهم ست بنات وشابان.. البنت الكبرى، يا إلهي، كانت اليوم بصحبة شاب في سيارة صغيرة وأنزلها في أول الشارع.. وماذا عن الهاتف؟

صحا فجأة على صوت زوجته:

- ماذا حدث لك؟ أتراه شيء جميل هذا الذي يحدث في المريخ! ها! حسبت أنك كنت هناك. كنت أقول إن بنت جارنا قد تخطب بين يوم وآخر، صديقها اليوم صعد معها إلى فوق... لأول مرة تيسرت لي رؤيته عن كثب، كنت بالمصادفة مارة من... إذا ما انتهى العشاء ستقوم إلى الراديو وسيقوم إلى جريدته، ثم يأتي موعد النوم.. وعليه أن يترقب هنيهة قبل أن يدخل إلى

الغرفة، يشغل نفسه بأي أمر، ثم يلج الباب، وسوف تكون واقفة أمام المرأة، فإذا كانت قد حلت شعرها فمعنى ذلك أنها تدعوه، وإذا كانت مطمورة تحت اللحاف فمعنى ذلك أنها لا تدعوه...
وحين يأتي الصبح يدق المنبه فتقول له بصوت رخو...
قام عن كرسيه فجأة، وأشعل لفافته واتكأ على الحائط، كانت تنظر إليه هلعة، ذلك أنه لم يعتد أن يقوم قبل أن تقوم هي، إلا إنه قال:

- وصلتني اليوم رسالة طريفة من صديقي..

- أي صديق؟

- مسعود..

- مسعود؟

- نعم..

- مسعود؟ ها! مسعود الذي مات منذ ست سنين!

- كلا، كانت كذبة، مسعود لم يموت..

قامت إليه ووقفت أمامه مباشرة:

- والآن، اسمع، ماذا حدث لك؟ أي نوع من المداعبة هذا

الهرء؟ أتريد أن أذكرك؟ حسناً، لقد مشيت في جنازته، وحملت مع

مَن حمل نعشه، وبكيت موته كالطفل، أتريد أن أوقف ذكرياتك

أكثر؟ كان جسده محطماً ممزقاً إثر تلك السقطة الرهيبة..

- وإن يكن! مسعود لم يموت.

نظرت إليه خائفة ثم حاولت أن تبتسم، إلا إنها لم تستطع إلا

أن تفتح فمها، وقال هو هادئاً:

- ماذا؟ أتحسبن أنني مجنون أو سكران؟

اقترب منها ببطء، وهزها من كتفيها:

- أتحسبن أنني كذاب؟

تركها ودار حول الطاولة.. كان يعرف أنها تكاد تثقب ظهره

بنظراتها فيما كان يشعر بشلال من المياه الباردة تغسله من الداخل

بنوع من النشوة..

- قلت لك أنني تسلمت منه رسالة اليوم..

- إذن، أرني الرسالة..

استدار، كانت ما تزال تنظر إليه، إلا إن شبح ابتسامة ساخرة

كان يرتسم على وجهها..

- الرسالة؟ آه، لقد نسيتها في المكتب..

- إننا نلعب..

- إننا لا نلعب! اسمعي! أتريدين أن أقول لك ماذا في رسالته؟

كلا.. أريد أن يبقى ذلك سرّاً.. هذه هي رغبتك، نعم، هكذا كتب

يوصيني، قال: لا بأس أن تقول أنك قد تسلمت رسالة من صديقك القديم، ولكن حاذر أن تقول ما الذي قرأته فيها.. نعم، وهذا هو السبب في أنني لم أحضرها معي إلى هنا..

عادت زوجته إلى الطاولة وصبت لنفسها قحفاً آخر من الشاي:

- لقد أصبح هذا الشاي نوعاً آخر من الجليد.. هذه الشيطانة

القبیحة لا تستحق شيئاً بالمرّة!

- أتریدین أن تعرفي أين يعيش مسعود الآن؟

- كلا، كلا لا أريد، أغلب الظن أنه يعيش في.. حسناً، أين يعيش

صديقك الميت؟

- إنه يتنقل في أنحاء العالم، كل يوم في مدينة.. كل يوم تحت

شمس أخرى، وكل ليلة في سرير آخر.. لقد جرب نصف مطاعم

العالم.. وقال لي أنه لا يعرف أين سيكون غداً ومن الذي سيكون

صديقه بعد ساعة..

قطعت زوجته الزبدة بالسكين الطويلة ثم صاحت:

- أوف! أيتها الشيطانة القبيحة، قلت لك أن لا تخرجي الزبدة

من البراد إلا قبل العشاء مباشرة. انظري إليها كيف صارت ماء!

مجرد ماء لا أكثر ولا أقل.. لن تفلح في إغاطتي!

- أنا لا أغیظك! أنا لا أحاول ذلك.. اسمعي، لقد طلب مني أن

لا أكتب له لأنه لا يعرف لنفسه عنواناً..

قالت زوجته:

- ألم يقص عليك صديقك العزيز قصة موته؟ أعني، أعني كيف

حدثت الخدعة؟

- إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك كله.. بل هو لم يسمع حتى

بالخبر.

- إنه صديق عزيز حقاً هذا الذي يذكرك بعد ست سنوات من

الفراق.

هز رأسه بأسى ووافق..

- إنه صديق عزيز حقاً! أتعرفين؟ إنه لا يعرف أنني قد تزوجت..

أعني أنه نسي ذلك..

- وماذا عنه هو؟ هل تزوج؟

- تزوج؟! أوه، كلا، كلا.. إنه لم يتزوج، لقد كتب يقول لي أنه

لم يتزوج.. وأنه لا يفكر بذلك الآن..

قامت زوجته وتوجهت إلى باب المطبخ، ثم صاحت:

- تعالي أيتها الشيطانة وأعيدي كل شيء إلى مكانه.. ضعي

الزبدة في البراد وليس في الفرن، هل سمعت؟ حسناً، ماذا قال

صديقك أيضاً، يبدو أن الرسالة كانت طويلة.

- أوه نعم، كانت طويلة جداً.. لقد كتب يقول أنه لا يمانع في أن يمر من هنا، ذات يوم، فيأخذني معه..
- يأخذك؟

سألته بعنف وهي على وشك أن تترك المطبخ، فاقترب منها وضمها بين ذراعيه بينما أبعدت كفيها مفتوحتين عنه كي لا يتسخ قميصه بآثار الزبدة.

- أوه! لقد قلت إنه نسي أنني رجل متزوج.. وعلى أي حال، لو مر من هنا فلن أذهب معه، أنا رجل متزوج..

تخلصت من عناقه، ومضت إلى المغسلة، بينما ظل هو واقفاً في حلق الباب.. ثم سمع صوتها يأتي من بعيد:
- وماذا أيضاً؟

- أوه! لا شيء يهكم، كل ما تبقى من الرسالة كان مشغولاً بأخباره وأخبار مغامراته ورحلاته.. لقد صرفت وقتاً طيباً وأنا أقرأها، كم بودي لو يظل يكتب لي.. أتعرفين؟

عادت، فوقفت أمامه وكتفت ذراعيها على صدرها..
- نعم؟

- إنه شيء رائع أن يكتب لي بين الفينة والأخرى..
- ومتى تعتقد أنه سوف يكتب لك مرة ثانية؟

- أوه، لست أدري! من أين لي أن أدري؟ على أي حال، يجب أن يفعل ذلك بسرعة.

أمسكت به زوجته من كتفيه وهزته، ثم تكلمت ببطء وهدوء:
- اسمعني جيداً.. هل أنت هنا؟ حسناً، لقد استمعت إلى كل رسالة صديقك.. لقد كانت رسالة ممتعة، لقد انتهى الأمر أليس كذلك؟ سوف لن تتحدث عنها أكثر.. قل لي إنك لن تتحدث عنها أكثر..

نظر إليها مشدوهاً ثم قال:

- ألا يهمك أن تستمعي إلى أخبار مسعود؟ ها! أنت تريدينني أن أقرأ رسائله وحدي دون أن أطلعك عليها، حسناً، أتوافقين، لن أقرأ لك، لن أخبرك بأي شيء عن رسائله، أتفهمين؟.. سوف أقرأها وحدي، استمتع بها وحدي.. أتفهمين؟

هزت رأسها وهي تغمض عينيها:

- أفهم، أوافق.. شرط أن..

- لا أريد شروطاً! آه! كم خسرت أيتها المرأة.. آه كم خسرت! اتفقنا.

حلت يديها عن كتفيه ثم نظرت إلى الساعة:

- إنه موعد النوم...

دارت على عقبها ومضت إلى الغرفة حيث حلت شعرها أمام
المرآة...

بيروت، ١٩٦٢

Twitter: @ketab_n

جحش

لا يعترف مسعود بك بالحقيقة إلا بينه وبين نفسه، وفي اللحظات القليلة التي يواجه فيها المرء، عادة، ضميره بصدق وشجاعة. وهذه هي الحقيقة، هي أنه إنما كان يقود سيارته بسرعة خارقة حين وقع الحادث المشؤوم، وأن المؤشر الأحمر كان يقفز كالشيطان من رقم إلى رقم على لوحة السيارة الأنيقة أمام بصره، وحين وجد نفسه أمام اللحظة الحاسمة لم يكن باستطاعته أن يقف، وبثبات أعصاب، تلقى الصدمة، وبذل جهداً عنيفاً ليحد من انحراف سيارته الفارهة، ودون أي تردد أكمل طريقه.

وهو على يقين، الآن، أنه لم يكن يحسب بأن مضاعفات الحادث ستصل إلى ما وصلت إليه فيما بعد. ففور أن اجتاز الضحية بدأ يفكر في إصلاح سيارته، فمما لا شك فيه أن واجهتها قد تحطمت إثر الصدمة، وقد استغرقه التفكير في هذه المشكلة حتى إنه لم يلاحظ سيارة صغيرة قد اجتازته بسرعة أكثر جنوناً من سرعته،

وحتى لو لاحظها فإنه لم يكن على استعداد ليتصور أن سائقها كان يريد أن يصل، قبله، إلى أول مركز شرطة ليبلغ عنه.

ولذلك فحين شاهد الحواجز الخشبية التي أقيمت على الطريق لم يخطر بباله أنها إنما أقيمت لإيقافه هو، فقط حين طلب منه الضابط أن يلحقه إلى مكتبه تذكر الحادث فجأة ولكنه لم يحسب قط أن تلك اللحظة ستكون بداية لمشكلة استمرت بعد ذلك عامين وثلاثة شهور..

فقط، بينه وبين نفسه، وفي لحظات خاصة، كان على استعداد ليعترف بأنه كان يسوق سيارته بسرعة غير معقولة، ولكنه، أمام الشرطة وأمام المحكمة وأمام أصدقائه وأمام رجال الصحافة أصر على القول بأنه كان يسوق سيارته بهدوء، وأن أمهر سائقي العالم لم يكن ليستطيع تجنب ما حصل.

الآن، بعد مرور عامين وثلاثة شهور على ذلك اليوم المشؤوم، ما الذي حصل في الحقيقة؟ إن مسعود بك، الذي عاش كل هذه المدة على أعصابه لحظة وراء لحظة، هو المصدر الوحيد على الرغم من أنه هو المتهم، وفيما عداه كان يوجد مصدر آخر هو سائق السيارة الصغيرة الذي بلغ عنه وقد اعترفت المحكمة بأن هذا السائق لا يعتبر مصدراً موثقاً، فهو نفسه قد قال بأنه شهد الحادث

عن بعد، وكان المطر والظلام يشوهان كثيراً من التفاصيل، أما المصدر الثالث فقد كان الضحية، ولكن الضحية ماتت.

حاول مسعود بك أن ينكر، في البدء، كل القصة، إلا إن واجهته سيارته المشوهة كانت شاهداً قاطعاً، وقد استطاع أن يتدارك الأمر قبل فوات الأوان حين استبعد نهائياً فكرة إنكار علاقته بالحادثة، واكتفى بالتمسك بالقول بأنه لم يكن مسرعاً حين حدثت الحادثة المشؤومة.

كان قد ترك ليلي خطيبته قبل منتصف الليل بساعة، وبدأ يسوق سيارته بهدوء عائداً إلى المدينة.. وبعد عشر دقائق تقريباً قرر بينه وبين نفسه أن يطلق لسيارته العنان، فالطريق واسع وطويل ويمتد حوالي سبعة أميال في خلاء شبه صحراوي، وبالإضافة إلى ذلك فهو سائق ماهر يشهد له بالمهارة كل من تيسرت له فرصة مرافقته.

كان المطر ينهمر بغزارة فيصنع واجهة السيارة الزجاجية وينحدر على جوانبها مثل سيول صغيرة تتسابق على سفح جبل صقيل، وكانت الأضواء الهزيلة المتناثرة على جانبي الطريق تبدو كأقمار بعيدة متعبة، ولا يتذكر مسعود بك ما الذي كان يشغل باله في تلك اللحظات، ولكنه يذكر تماماً أنه شاهد كتلة سوداء ضخمة تحاول أن تقطع الطريق، ثم شاهدها تقف، وقبل أن يكتشف

طبيعتها كان قد صار على بعد أمتار قليلة منها، وفي تلك اللحظة بالذات تحركت الكتلة مرة أخرى دون أن تعبأ بزعيق السيارة وتبين هو في اللحظة التالية أن تلك الكتلة السوداء لم تكن إلا جحشاً صغيراً قاتم اللون، ولكن فرصة تفادي الصدمة كانت قد ولت: كانت الأرض مبتلة وكان مسعود بك على يقين بأنه لو ضغط بقدمه المكبح حتى نهاية مداه لانزلقت السيارة وربما انقلبت، وهذا هو السبب في أنه لم يبذل جهداً حقيقياً وفضل أن يصدم الجحش بجناح سيارته، ثم يتفادي انحراف السيارة ليكمل طريقه.

ورغم أن مسعود بك له قلب رقيق جداً، فإن الحادث هذا لم يحزنه قدر ما أحزنته تصرفات ضابط الشرطة في ذلك المخفر الصحراوي، فقد تركه ينتظر في المكتب العاري البارد ساعة كاملة استغرقتها رحلة شرطيين إلى مكان الحادث، وحين عادا صرفا نصف ساعة وهما يكتبان تقريرهما عن الحادث بإشراف الضابط، وكان مسعود بك جالساً في تلك الغرفة يرتجف ويتميز غيظاً حين دخل الضابط وأبلغه بصوت تفوح منه لهجة الخطورة:

- لقد قتلته.

- قتلت من؟

- الجحش! كان المسكين يلفظ أنفاسه الأخيرة، فأطلق

الشرطيان في رأسه رصاصة الرحمة، كسرت الصدمة ظهره وسحقت العجلات ساقيه الأماميتين وحين سقط لم يستطع أن يرفع رأسه من بركة ماء صغيرة خلفها المطر في الطرق. فمضى يبلع ماءً موحلاً، وكان من المستحيل على المسكين أن يتنفس وأنفه غارق في الماء، ويبدو أنه بذل جهداً ليصطاد بعض الهواء في محاولات محدودة النجاح كان يقوم بها بين الفينة والأخرى، ولكنه كان قد وصل إلى مرحلة ميؤوسة حين وصل الشرطيان، يقولان إنك لو نزلت من سيارتك، وكلفت نفسك بعض الانزعاج، وسحبت الجحش إلى جانب الطريق لكان من الممكن أن يعيش... أما الآن!

ونفض الضابط ذراعيه على جنبه، وبدا حزيناً بائساً وأنشأ يحدق إلى مسعود بك تحديقاً متواصلًا محملاً بالاتهام، ولم يستطع مسعود بك أن يتحمل المزيد. كان الغيظ قد وصل به إلى ما يشبه الجنون، وربما كانت تلك اللحظة هي من اللحظات النادرة التي خرج بها مسعود بك عن طوره:

وقف دافعاً الكرسي بعنف إلى الورا فامتلاً المخفر الهادئ فجأة بالضجيج، مد يده إلى جيب معطفه ودفع إلى الضابط بطاقته:
- تستطيع أن تلاحق هذه السخافة غداً.. هذه بطاقتي.

إلا إن الضابط لم يفك كفيه المعقودتين وراء ظهره، بل إنه لم

ينظر إلى البطاقة، وقال بهدوء:

- آسف يا سيدي، أنا مضطر لاحتجاجك حتى الصباح.

- كلام فارغ.. اقرأ البطاقة قبل أن تحكي.

- لا تهمني البطاقة.. سأحتجرك.

- أنا مسعود بك..

ولكن الاسم لم يترك أي انطباع في وجه الضابط الجامد، وخيل

لمسعود بك أن الضابط لم يسمع به من قبل، ورغم ما في ذلك من

إهانة لمسعود بك إلا إنه، بينه وبين نفسه، تيقن من شيء واحد

على الأقل هو أن الضابط لا يعرف عواقب موقفه، وسيتعرف إلى

تلك العواقب حين يتعرف تماماً إلى الرجل الذي يخاطبه. ولكن كل

ذلك لم يكن صحيحاً، وذلك أن الضابط، الذي لم تتغير ملامح وجهه

على الإطلاق أصر على احتجازه:

- أهلاً وسهلاً مسعود بك، أنا أعرفك جيداً، صورك في الصحف

كل يوم، أذكرها وهي صور حقيقية تشبهك تماماً.. ولكن ذلك لا

يغير شيئاً.. لقد قتلته، وأنا مضطر لاحتجاجك.

- تذكر أنك تتكلم عن جحش..

- وإن يكن، القانون واضح تماماً بهذا الشأن، إنه واضح أيضاً

بالنسبة لدهس الكلاب والقطط، وكما تعلم يا مسعود بك فإن

الجش أكبر حجماً وأكثر قيمة من حيث علاقته بالإنسان
وبالمجتمع..

وأحس مسعود بك بأنه على وشك الجنون، ولكنه استطاع أن
يكبح جماح نفسه، وبيروود ترك البطاقة تسقط من بين أصابعه أمام
قدمي الضابط، ودار دورة صغيرة متجهاً بخطوات ثابتة إلى الباب،
وكان على وشك اجتيازه حين سمع الضابط، دون أن يتحرك من
مكانه، يقول بهدوء، وبنفس اللهجة الصارمة:

- أنت محتجز هنا يا مسعود بك، وأرجو أن لا تضطرنني
لاستدعاء الشرطة ليضعوك في غرفة مغلقة بالقوة.
وحين توقف مسعود بك فقط استدار نحوه:

- صحيح أن هذه الغرفة باردة وعارية وموحشة، ولكنها أفضل
من غرفة الاحتجاز التي إذا شئت فرجتك عليها.

وبذكائه المعتاد اكتشف مسعود بك أنه قد اصطيد، وأن
الطريقة المثلى للتصرف هي الطاعة. وكان ما زال مسيطراً تماماً
على أعصابه رغم غيظه الهائل فاتجه بهدوء إلى حيث استطاع أن
يجلس، كان الضابط ينظر إليه بأدب، ولكنه كان يستطيع أن يتبين
وراء ذلك الوجه الصارم عاصفة من الضحك المكبوت:

- أنت لا تعرف مغبة هذا التصرف السخيف، غداً ستأكل

أصابعك ندماً.

- أن يأكل المرء أصابعه خير من أن يأكلها غيره.. إذا أطلقتك
أكل المسؤولون أصابعي يا مسعود بك..

- مسؤولون! مسؤولون وأنت تعرف من أنا؟

- الرجل الذي لا يقهر! هكذا تسميك الصحافة يا مسعود بك،
وأنا في الحقيقة معجب بك أشد الإعجاب، ودائماً ألفت نظر أولادي
إلى قصتك.. ودائماً أقول لهم: انظروا كيف استطاع مسعود بك أن
يصير الرجل الذي لا يقهر في كل البلد رغم أنه بدأ حياته سائقاً
مأجوراً لشاحنة تنقل الحجارة من الجبل إلى المدينة.. إن ذلك
يحدث نادراً في الحياة يا مسعود بك، ففي عشر سنين استطعت أن
تصبح الرجل الأول في البلد، هل تستطيع أن تتصور ماذا يعني ذلك
بالنسبة لرجل مثلي؟ بدأت حياتي شرطياً، والرتبة تأتي وحدها، أنت
تعرف ذلك...

ولكن مسعود بك لم يجب، بل مر الشريط السريع لحياته أمام
بصره مثل كل مرة يسمع فيها هذا الكلام: ملحمة من العمل الجبار
الذي لا يهدأ، ولكنه يتميز عن سواه في مثل هذه الحالات بأنه كان
عملاً شريفاً مفتوحاً أمام الناس، ليس فيه بقعة سوداء واحدة.. وفي
لحظات قليلة غرق مسعود بك في هذا البحر من الماضي المزدهم

المشرف، ولم ينتشله منه سوى صوت خطوات الضابط وهو يغادر الغرفة، وقبل أن يغلق الباب وراءه قال مسعود بك بهدوء، ولكن بكل ما يستطيع الرجل القوي أن يشحن لهجته بالأهمية:
- إنني أكره ذلك.. ولكنك ستصبح مجرد شرطي صباح غد، ومن جديد.

وبنفس اللهجة الخطيرة التي اعتادها ضابط شرطة في مخفر صحراوي، أجاب الضابط:
- أنت رجل شريف يا مسعود بك، تستطيع أن تفعل ذلك، ولكنك لا تفعله.
- هذه المرة سأفعله..



أمضى مسعود بك تلك الليلة الباردة فوق كرسي الخشب يتميز غيظاً ويرتجف برداً ويملاً رأسه بالخطط، ولا شك أنه غفا فوق المقعد، وحين فتح عينيه كانت الغرفة مضاءة بنور الفجر الهادئ، وكانت أكبر صحف المدينة مفروشة إلى جانب عتبة الباب، ومن مكانه ذاك قرأ العنوان الكبير في رأس الصفحة «مسعود بك يقتل جحشاً!»

وفي لحظة واحدة أدرك أن الضابط قد بدأ يدافع عن نفسه، وهمس مسعود بك: المجنون! حسب أنني سأنفذ تهديدي. ولكنه أدرك أن الخطوة الأولى سبقت ما يمكن أن يفعل، وأحس بأنه قد امتلاً بنشاط محموم مثل كل مرة يعتزم فيها خوض صراع خطير، ولاحظ ذلك بشكل أوضح حين بدأ اتصالاته بالهاتف فانتابه شعور مفاجئ بالخجل، وقال بصوت خفيض: «جحش!» ولكنه لم يستطع أن يسيطر على أعصابه تماماً وهو يشرح لقائد الشرطة تفاصيل ما حدث، وأحس بأن وجه القائد على الطرف الآخر من الشريط يتمسح بابتسامة ساخرة مقيتة..

وكان ذلك الإحساس في تلك اللحظة هو البداية فقط، فمنذ عامين وثلاثة شهور ونفس تلك الابتسامة الساخرة المقيتة تطالعه على كل الوجوه التي يقابلها. ولا يذكر الآن أبداً أنه استطاع أن يعيش لحظة واحدة من بين لحظات عامين وثلاثة شهور دون أن تكون تلك الابتسامة رقيقاً ملازماً له ولأفكاره وأحاسيسه وتصرفاته.

لقد استطاع مسعود بك أن يتجنب مزيداً من الاحتجاج، بل إنه استطاع أن يتدبر أمره فيخرج من حبسه البارد قبل أن تفتح دوائر الدولة أبوابها، ولم ينس وهو يتجه إلى سيارته أن يرمق الضابط بنظرة لها معناها، إلا إن الضابط تجاهل تلك النظرة بأدب وفتح له

باب السيارة وانحنى له انحناء خفيفة وهو يقول بلهفته الجامدة
المهذبة:

- أرجو أن لا يكون تطبيقي للقانون قد أزعجك يا مسعود بك..
إلا إن مسعود بك صفق باب السيارة بعنف، وخيل إليه أن
هدير المحرك إنما هو ضحكات شامتة: ضحكات الضابط والشرطيين
وقائد الشرطة ومحربي الصحيفة وآلاف القراء الذين فوجئوا بذلك
العنوان الصارخ: «مسعود بك يقتل جحشاً».

ولم ييسر له الناس في اليومين التاليين أية فرصة لنسيان
الحادث، اتصل به أكثر من محرر صحيفة ليستوضح، وكان هو يعتزم
فعلاً توضيح ما حدث، ولكن الصحف تابعت الموضوع بشكل سبب
المزيد من الغيظ له، وكانت العناوين، في الأيام التالية، قد انسحبت
إلى الصفحات الداخلية، ولكنها صارت أكثر إغاظه: «قصة مسعود
بك مع الجحش؟»

ووصلت الأزمة إلى منتهائها بعد أسبوع حين تلقى مسعود بك
تبلغاً من المحكمة وقرأ في رأس التبليغ: «المدعي: جحش، المدعى
عليه: مسعود بك..»

ولا شك أن مسعود بك كان على صواب حين رفض الذهاب
للمحكمة، كان يستطيع أن يتصور حشود الصحفيين والناس تنتظر

مشاهدة مسعود بك يدافع عن نفسه ضد جحش مقتول، وقال لنفسه إن القانون واضح، وسوف تفرض عليه المحكمة دفع غرامة معينة ربما تزيد قليلاً بسبب غيابه لكن هذا لا يهم طالما أنه سيضع نهاية للإشكال كله..

ولكن المحكمة رفضت أن تبت القضية دون حضور المدعى عليه، وكان موقف القاضي حرجاً رغم صداقته لمسعود بك ورغم معرفته لنفوذه، فالقصة أصبحت معروفة لدى جميع الناس، ثم أن هذا كله قد يؤدي بالمحكمة إلى مأزق.

والواقع أن مسعود بك يعترف بينه وبين نفسه بخطأين ارتكبهما في هذا المضمار، الأول أنه لم يشأ أن يتراجع عما قاله لضابط المخفر بعد الحادث من أنه لم يكن مسرعاً، والثاني أنه واصل بإصرار الامتناع عن الذهاب للمحكمة، وقد سببت هاتان النقطتان تعقيداً جديداً في القضية: فالمحققون يقولون إن كافة الأدلة تشير إلى أن سرعة السيارة وقت الحادث لم تكن تقل عن مئة كيلومتر في الساعة، وكشفت الصحافة، من ناحية أخرى، أن إصرار مسعود بك على عدم الذهاب للمحكمة يحمل طابع التحدي، وبانتظار حل هذين الإشكاليين واصل القاضي تأجيل القضية مرة بعد أخرى، حتى مرّ عليها عامان وثلاثة شهور.

والذي كان يغيظ مسعود بك أكثر هو أن إحدى الصحف عقدت مسابقة بين قرائها كان عنوانها: «من يكسب.. مسعود بك أم الجحش؟» وأفردت لآراء القراء ركناً يومياً أثبت أنه ركن مقروء أكثر من الأركان المتعلقة بالأخبار السياسية..

وبعد مرور وقت قصير اقترن اسم مسعود بك بالجحش اقتراناً عجبياً، وصارت أية واحدة من الكلمتين توحى فوراً بالكلمة الأخرى، ولا شك أن هذا بالذات كان أكثر ما يضايقه ويخرجه عن طوره. والشيء الوحيد الذي كان يضايقه أكثر من ذلك هو اكتشافه فجأة، وبعد مرور عامين وثلاثة شهور على ذلك الحادث المشؤوم، أنه ليس هناك أي مخرج من المأزق التعس الذي وضع نفسه، أو وضعته الأقدار، فيه.

وقد أورثه هذا الاكتشاف كآبة لم يعرفها في حياته، حتى عندما كانت ساعات العمل المرهقة في قيادة شاحنة محملة بالصخور تسد أمام عينيه مسالك البصر، وفجأة توصل إلى اكتشاف آخر، وهو أنه قضى طيلة عامين وثلاثة أشهر محبوساً في نطاق محكم الإغلاق من حياة يملأها شبح اسمه جحش، وجحش قتيل أيضاً، وأن كل الظلال التي كان يشاهدها في مكتبه وفي منزله وفي الطريق، كانت تتبدى له أشكالاً مختلفة الحجم لجحش أسود صغير له أذنان

كبيرتان، وأن ذلك كان يحدث كل لحظة طوال عامين وثلاثة شهور.. ولم يستطع مسعود بك أن يتخلص من فكرة ملأت رأسه فجأة: لقد تبدت له بادئ الأمر فكرة سقيمة ولكنه، في مدى ساعتين فقط، اعتادها تماماً متقيناً أنه ليس ثمة أي مخرج عداها، ولم يكن بحاجة إلى أي دراسة للتفاصيل حين قرر أن ينهي حياته، ويضع حداً بذلك لعامين وثلاثة شهور مزدحمة بالشقاء والتعاسة.

فقط حين قرّر قراره ذاك عاودته أحاسيسه التي افتقدتها طوال ذلك الزمن، منذ الحادث المشؤوم. ولأول مرة منذ عامين وثلاثة شهور فتح باب منزله دون تردد، ومشى عبر الممر بخطوات ثابتة وكانت الجدران تبدو حوالية نقية، ناصعة، ليس في تعاريجها ولا في رسومها بسمات مكتومة ولا ترسم فوقها ظلال أو أشباح.

بيروت، ١٩٦٢

رأس الأسد الحجري

كان الفقر، في تلك الفترة، يجتاح حياتي كموجة ثقيلة تحمل معها رملاً وحصى.. ورغم ذلك فلقد توصلت إلى إقناع نفسي بأنها موجة هادئة تماماً، وأنها وإن كتمت أنفاسي، إلا إنها فعلت ذلك بكثير من الهدوء والصمت..

كانت الديون قد أغرقتني أيضاً.. وكان هذا بالذات أسوأ ما في الأمر.. فالمحرر الآخر الذي يعمل معي في المجلة يطالبني كل لحظة بواسطة زوج من العيون الصغيرة بسبع ليرات وخمسة وأربعين قرشاً.. وكان قد دفع هذا المبلغ للمطعم الصغير القذر الذي كان خادمه يحمل إلى مكثبي كل صباح صحناً من الفول مع البصل.. وكان البقال الذي تقع دكانه على ناحية رصيف بيتنا يطرح سلامه كل صباح بأعلى صوت تستطيع أن تصدره حنجرته المدفونة عميقاً في عنق يشبه عنق الثور، يفعل ذلك ليذكرني بسبع وعشرين

ليرة على الأقل، مسجلة في دفتره الكبير أثماً لعلب الدخان الرخيصة، والأرغفة التي كانت تؤخذ، بين اليوم والآخر، مع قليل من الزيتون، أو الجبن، أو علب اللحم المحفوظ في أحسن الأحوال..

هذا كوم قائم بذاته، أما الكوم الأثقل فقد كان ذلك الصديق النبيل، الذي أعطاني، ذات يوم، خمسمئة ليرة دفعة واحدة تاركاً أمر تسديدها لظروف أحسن.. ولما كنت قد بدأت أشعر بأن ليس ثمة ظروف أحسن تلوح من قريب أو بعيد، أحسست بوطأة الدين تعقد لساني عن طرح السلام كلما تصادفنا في الطريق، أو تعترض طريقي إذا ما اضطررتني ظروف غادرة العبور أمام مكتبه..

بدا لي العالم، ثمثذ، عالماً قميئاً صغيراً ليس فيه إلا الظلمة والظلم، ولا تحده إلا دكان البقال السمين، وإلا طاولة المحرر العجوز، وإلا مكتب الصديق النبيل.. أما الحد الرابع، فلقد كان بلا شك نافذة للهروب: ذلك هو عامر، الصديق الذي كان يبرز دائماً في أشد ساعات الضيق ليدعوني لتناول فنجان من القهوة في مطعم على شاطئ البحر، وليفتح أذنيه كي أصبّ فيهما يأسى وشتائمى، وليهز رأسه قائلاً مع رشفة القهوة الأخيرة إن الأيام القادمة لن تكون أشد بؤساً..

وعامر هذا شاب طيب في مجمله، طيب داخل الحدود التي كنت أتعامل معه فيها.. فثمة ما كان يباعد بيننا في كثير من

الأحيان، ولذلك فقد كنا نتلافى العبور إلى تناقضاتنا. لقد ولد عامر من أب إيطالي وأم فرنسية، وكان الاثنان يعملان في السلك السياسي هنا منذ زمن بعيد حينما تعارفا، وإذا كانا قد اتفقا في كثير من الأمور فإن الشيء الأهم الذي جمعهما هو حبهما للشرق، ورغبتهما في صرف حياتهما فيه..

وهكذا فحينما ولد صبيهما الأول سمياه عامراً، وأنشأه على أنه عربي، وحينما علماه، علماه العربية أولاً، ولذلك فإنه كان يجيد هذه اللغة أكثر مما كان يجيد الفرنسية والإيطالية..

ولكن الذي حدث فيما بعد كان على عكس تصور الوالدين المتصوفين، ذلك أنه حين بلغ عامر مطلع شبابه، كان الحنين إلى الوطن قد فتك بوالديه، ورغم أن الوالدين لم يبوحا بهذا الحنين لبعضهما، إلا إنهما ما لبثا أن شعرا به يعطل عليهما هذا الانسجام الهادئ بينهما، من ناحية، وبين الشرق من ناحية أخرى، فقررا، ذات يوم، أن يسافرا إلى بلادهما، فيطوفا فيها قبل أن يعودا إلى الشرق من جديد..

كنت في تلك الفترة أعرف عامراً معرفة طالبين يقتحمان معاً امتحانات صعبة، ويربطهما ذلك الرباط الذي يشد بين فرسي رهان حين يطالان حبل الشوط الأخير بعنق واحد، ولذلك فقد افتقدته

وافتقدني حينما افترقنا، ومرّت سنون عديدة، كدنا ننسى بعضنا خلالها، قبل أن يعود مرة أخرى فيزورني ليلة وصوله مهندساً مختصاً بالطيران والمحركات الصعبة ويشاهدني صحفياً صغيراً لاحق الأحداث بحماس أو بفتور، وأغضب وأرضى صاعداً نازلاً في أعمدة المجلة.

هنا، لمس كل منا أن الآخر قد ابتعد عن الأول، وحينما قلت له ذلك بعنف قبله بهدوء واقترح أن نظل بعيدين عما يمكن أن يفصل بيننا، فكل منا يحتاج إلى الآخر احتياج الزوجين العجوزين لمجموعة صور حبهما المبكر...

كان عالم عامر عالماً مرتباً نتيجة لدراسته الفنية الطويلة.. وبقدر ما كان أبواه يرتبطان بهذا الشرق كان هو يرتبط بالغرب. وقال لي في مرات عديدة إن أبويه كانا نغمة شاذة في سيمفونية العائلة، وإنه هو قد ارتد بالنغم إلى الأصول..

ورغم ذلك فقد بقي عامر نافذة الخلاص في ذلك النطاق المحكم من الحصار الرهيب المضروب حولي، وكنت أغسل كآبتي الكبيرة في فنجان القهوة الصغير الذي كنا نشربه معاً بين الفينة والأخرى على شاطئ البحر.

لم يحدث قط ما كدر علاقتي بعامر، كان يقبل كل شيء بصدر

رحب... لم يحدث ما كدر تلك العلاقة إلا يوم أن شكوت له حالتي
المؤسسية، وطالبتة باقتراح يجعلني قادراً على فك نفسي من الطوق
الرهيب..

- حسناً لماذا لا تقنع والدك ببيع بيتكم؟ ها؟ إنه ملككم.
صحيح أنه بيت قديم، إلا إنه سوف يجلب مبلغاً كافياً من المال
يسدد ديونك وديون أبيك، ويزيد رأس مال مجلتك، وقد يرسلك
للاختصاص في أوروبا.

لم أجب، فقط نظرت إلى البحر كي أكنم بداية نقاش كنا
اتفقنا أن لا نشيره.. ورغم أنني كنت أحبس كلاماً كثيراً في حنجرتي،
إلا إنني لم أستطع إلا أن أبدأ بالنقر على الطاولة بشيء من العنف.
كان لا بد من أن أفعل كل شيء أي شيء.. تلك فكرة كانت موجودة
في رأسي، وأنا أعرف أن والدي لن يجد فرصة أروع من أن يكسب
موافقتي على بيع البيت العتيق، فذلك سوف يحل له كثيراً من
المشاكل إلى الأبد، أعني إلى أبده هو، ولكنني لم أفكر قط أن تصل
الموافقة إلى لساني، بل إن أبي نفسه لم يكن ليجرؤ أن يجرها
مني، أو يسألها أو حتى يستعطفها.. كان بيع البيت العتيق نقطة
ضعفي الرهيبة..

وفي لحظة واحدة تكومت في عيني الدموع، وعبثاً حاولت أن

أردها.. لقد أحسست فجأة أنني على وشك أن أبكي كالطفل، فرفعت صدري عن الطاولة وتنفست ملء رئتي لأسقط إلى صدري ذلك الشيء الذي اعترض حنجرتي كسكين عريضة.. ولكن ما إن فعلت، حتى دارت في صدري تلك الرائحة العجيبة التي تفوح دائماً وبلا سبب في باحة دارنا: مزيج من الرطوبة القديمة، ورائحة شجرة ياسمين، وعبير من أوراق شجرة البرتقال ذات الساق الطويلة.. مزيج خاص وغريب تنشقته منذ درجت في تلك الباحة طفلاً، وحين شببت فيها رجلاً، رائحة تملأ الأنف والصدر وتتمشى في العروق كأنها الارتواء، لطالما تنشقتها وأنا أتمطى في غرفتي التي تطل على الباحة بثلاثة شبابيك عالية من زجاج ملون، وفي صدر الباحة كانت بركة الماء الصغيرة تحت الدرج الخشبي تفور مياهها ليل نهار من فم أسد حجري له رأس كبير، فتحمل معها رائحة النهر والبرية والبساتين.. وكان الصوت يأتي، عبر الزجاج الملون والشبابيك العالية، رامياً برخاوة مزيجاً من تدفق الماء، وحفيف شجرة البرتقال، وأصوات الجيران البعيدة تبدأ يومها الجديد. ثمة عصافير كانت تختبئ بين الأغصان فلا تطالها إلا عيناها، وكان أبي يقول إنها عصافير تعرف شجرتنا كما نعرفها نحن، وإنها من أهل الدار لا تمس ولا تطرد ولا تخوف..

دارنا.. كانت باحتها المكشوفة مفروشة ببلاط كبير من صوان بني، وكان الدرج الخشبي قد اهترأ من وسطه وزال دهانه، إلا إنه كان قوياً وصالحاً.. وغالباً ما كانت الأوراق الجافة تتساقط أثناء الليل فتفرش بعض الساحة البليلة، وكنت أسمع أصوات تكسرهما الناعمة في أبكر الصباح حينما كان أبي يعبر الباحة ذاهباً إلى السوق.. وكانت أُمي تجمعها.. فأسمع صوت كنسها يعبر إلي منهنكاً بينما تظل الشجرة تنمو، والياسمين يزهر، والأسد يثرثر.. ومقابل غرفتي كانت تقبع غرفة أخرى واسعة، فيها سجادة كبيرة رُفت إلى الدار مع أُمي.. وكان السقف عالياً منقوشاً بالخشب، وكانت ستة شبابيك صغيرة، شباكان في أعلى كل حائط، مقسم كل واحد منها إلى نجمة ذات عشرة رؤوس، ومسدودة بالزجاج الأزرق والأحمر والأصفر.

- لا تتكلم عن بيتنا!



قلتها فجأة، وأحسست في الوقت ذاته أنني قد انتصبت واقفاً، لم أدري متى حدث ذلك وكيف، ولكنني ما ترددت قط، أخذت سجائري الرخيصة وساقنتني خطوات واسعة إلى الشارع، وطوال

الطريق إلى البيت كانت الرائحة الغريبة تزكم أنفي.. وكنت أحسها
تموج في صدري كطوفان صغير ماتع.. أتكون هي الذكريات التي
تجرها تلك الرائحة القاسية؟

كم هي قاسية وماتعة معاً! كيف يمكن لأبي أن يفكر بالتخلي
عن البيت الذي عاش فيه أكثر من ستين سنة؟ كيف؟ ألا تملأ صدره
تلك الرائحة؟ ألا يحس أصوات تلك الأوراق الجافة وهي تطوف في
عروقه كلما دعست خطواته المنهكة صوان الباحة؟

- ولكن يا بني! متى سوف تسدد دينك وأسدد ديني؟ ما الذي
يهمك في هذا البيت العتيق الموشك على السقوط؟ معاشك لا يكفي
سرف يوم واحد.. أختك ما زالت في أبواب دراستها وأنا عاطل عن
العمل.. فمتى تتوقع أن نسد الديون؟ لماذا لا نبيع البيت ونشتري
شقة صغيرة تكفيننا، ونعيش.. لماذا لا تستمع إلي وتعترف بأن...

ولكنه ما كان يستمع إليه قط، كان يدور على عقبيه ويمضي،
وهو يعرف أن حاجبي والده الأشيبين يرتعشان غضباً وحنناً، يفتح
الباب فتلامس كفه المقبض النحاسي المدور ويئز الباب، ثم يمضي
فيخفق الدرج بخطواته، ويجتاز الباحة ثم يجر الباب الثقيل المرصع
بالمسامير ذات الرؤوس العريضة فيتلقاه الزقاق والشبابيك
المتكاثفة والصبية يكتبون بالطباشير فوق الجدران المقشورة،

والشباب يتحادثون والعجائز على كراسي القش الواطئة أمام أبواب البيوت، وبضعة دكاكين قديمة فيها كل الأشياء مكومة فوق الرفوف، ثم الشارع العام، والبقال والديون والمحزر والصديق النبيل وخمسمئة ليرة لا يعرف شكلها ولا كيف تصنع.

كيف حدث أن صرف خمسمئة ليرة في شهر واحد؟ كيف أجازت له نفسه أن يفعل ذلك وهو يتقلب في الجوع والحرمان والفقير والديون؟ كيف؟

كان يقول له عامر:

- تتصرف كأنك حاتم وأنت تأكل فولاً منذ أشهر، لماذا كل هذا الغباء؟ هل أنت مسؤول عن العالم؟

وكان هو يقول بينه وبين نفسه أو لعامر:

- سمها عادة قميئة، لا يهمني هذا الهراء.. ولكنني إذا وجدت رجلاً أجنبياً في الطريق، قطع نصف العالم فوق دراجة بخارية، ثم وصل إلى هنا معدماً فعلياً أن أستضيفه.. لست أستطيع إلا أن أفعل...

- لماذا؟

- هذا سؤال سخيف!

في ذلك اليوم جر الرجل الأجنبي ودراجته المغبرة إلى بيتهم

واستضافه في غرفته دون أن يعنى بالتفاصيل..

ولقد وقف الشاب الأجنبي مشدوهاً في ذلك البيت الواسع الهادئ، وحينما استطاع لسانه أن يتحرك سقطت كلمة واحدة لاهثة:

- إنه جميل!

وأحس هو بالفخار.. ليس يدري كيف، ولكنه دار حول نفسه ينظر كأنما للمرة الأولى إلى كل الأشياء الصغيرة التي لم تعد صغيرة قط، وقال له أبوه:

- يا بني: قم بواجبك تجاه الرجل..

وقالت له أمه:

- سوف أعد له سريراً في غرفتك.. قل له أن لا يكلف نفسه عناء التفتيش عن مطاعم، سوف يأكل هنا..

واستدارت أمه، ثم قالت قبل أن تعبر الباب:

- سوف تكون حريصاً على إشعاره بأنه ليس عبثاً على فقرك. ولم يحس الأجنبي لحظة بأنه عبء.. لقد أحس وكأنه في بيته، بل إنه قرر أن يبقى لفترة أخرى ينط هنا ويصور هناك ويسوح هنا وهناك، أما هو فقد كان كل ما يهمه أن لا يضيع الشاب فقراً في المدينة الغريبة..

عرف فيما بعد أنه شاب من لندن، ويدرس في إحدى جامعاتها،

وأنه قرر أن يزور الشرق حينما قرأ عنه بعض الحقائق وكثيراً من الأكاذيب.. ولما كان توفقه جامحاً ونقوده قليلة فلقد قرر أن يعبر كل أوروبا فوق دراجة نارية، ليعيش على ما تهيؤه له الظروف والأقدار وأخلاق الناس ومواطنوه السائحون أو السياسيون.. وحينما حط رحاله في الشرق قرر أن يغير رأيه وذلك بتأليف كتاب جديد يمحو فيه الأكاذيب ويزيد من الحقائق.. أما هو، فلقد كان سعيداً بأن يتوصل جيمس إلى هذا القرار، وكان يحس أن البيت الكبير هو الذي غير جيمس.. وأن أوراق كتابه إنما هي أوراق شجرة البرتقال هذه التي تسبح كل صباح في عينيه.

كيف تتعقد الأمور دفعة واحدة؟ ألم يكن جيمس وحده عبثاً كافياً؟ كأنما القدر كان مستعجلاً أمر إغراقه في الديون فأراد أن ينتهي من هذه المهمة في شهر واحد. لقد أحس هو ذلك حينما دخل مكتبه ذات صباح فوجد فتاة شقراء تجلس في مقعده:

- اسمي روز، إنكليزية، صديقك محمود يدرس معي في الجامعة تصله مجلتك بانتظام، وهو بالمناسبة يهديك تحياته..

وصمت الفتاة هنيهة، ثم قامت عن المقعد ومدت له يدها فصافحها وتابعت:

- لقد نصحني أن اتصل بك حينما عرف أنني سوف أزور الشرق

في هذه العطلة، قال إن بيتكم الشرقي سوف يهمني ثم إنك -
هكذا قال محمود - لديك من الفراغ ما يسهل عليك مرافقتي لأيام
قليلة كي أستطيع رؤية أهم ما يستحق أن يشاهد..

سوف تقول له أمه إن طعام الواحد يكفي اثنين، وطعام الاثنين
يكفي أربعة، وغرفة أختك واسعة وبيت الأسد لا تخلو منه عظام..
وسوف تقول له أخته: إنها سوف تتسلى وتتعرف عبر روز على عالم
لا تعرفه ولن تعرفه، وسوف يقول لنفسه: لتترافق مع جيمس
وستوفر عليّ عناء الرفقة... وسوف يقول أبوه: فتاة دخلت بيتك
تكسب حرمة وتصير مثل أختك.. وسوف يقول جيمس: رفقة
جميلة في بلد جميل.. وسوف يقول عامر: عرفني على هذه الحسنة
فأوفر عليك مصاعب إطعامها..

ولكنه ما شاء لها أن تقع في حبال عامر.. لقد دخلت بيته
فصارت لها حرمة أخته، وعامر رجل لحظة يعبر متعته بسيارة
وبسمة وكذبة ثم تصير وعوده قبض ربح، كم من فتاة عرفها تعرف
عامراً، وكم سمعه يحكي عنها مغامرة وسمعتها تحكي عنه حياً..

ثم ماذا؟ ها هو عامر ما يزال يقفز من فتاة إلى أخرى بسيارته
الصغيرة الحمراء.. يبكي على ركبته سائلاً حين يوقع، ويبكي على
ركبته كاذباً حين يترك.. فتاة تروح وفتاة تجيء وعامر يجمع بين

تذكاراته الصور، وينثرها بين يدي رفاقه حينما يعلو حديث المرأة
أو يخفت حديث الرجل..

لما عاد في المساء تلقفه جيمس في باحة الدار، وصاح وفي
عينيه الزرقاوين تموج المفاجأة:

- أتدري ما حدث؟ لقد اكتشفنا أنني وروز من حي واحد في
لندن... ليس هذا فقط، بل إن جدار بيتها يفصله أقل من مئة متر
عن جدار بيتي، هل تتصور ذلك؟

يتصوره؟ إنه لا يصدق! كل عمره في هذا الزقاق مضى بين
جدران اللحم والحب والجيرة.. هل من المعقول أن يتصور زقاقه
دون أبي شاكرك وكرسيه على الناصية، ودكان فهمي وهو فيها يطرح
سلاماً ويرد سلاماً؟ هل يوجد زقاق دون كل هؤلاء الذين ارتفعت
أكتافهم معاً؟ والذين مزقوا كل شبر تراب في الزقاق معاً، الأطفال
والأبواب، والنوافير، والنساء، والأفراح والأحزان والمشاجرات
والمصالحات..

وحينما نظر إلى روز هزت رأسها وانساحت الكلمات بطيئة
لاثغة عبر ابتسامة دقيقة:

- أليس عجباً فعلاً أن يلتقي الجاران في الناحية الأخرى من
العالم للمرة الأولى؟

واقترب هو منهما وسأل:

- تعنيان أنكما تعارفتما هنا فقط؟ تعنيان أنكما لم تكونا تعرفان بعضكما في بلدكما؟
وقالت روز:

- بل أنا لا أذكر أنني لمحتة ولو مرة واحدة طوال الاثنتين والعشرين سنة الماضية.. وأعتقد أنه لا يذكر أيضاً..
اجتازهما، لم يكن يستطيع أن يكون أي شعور معين، كان تعباً وكانت الديون قد بدأت تتراكم، وأبوه قال أنه لم يعد يجد من يدينه، وقالت أمه إن إكرام الضيوف واجب ولو باع واحدنا جلده في سوق المزايمة. وحينما وصل إلى منتصف الدرج الخشبي التفت إليهما، وأحس فيما كانا ينظران إليه أنه كان فظاً حينما لم يفرح بما فرحا به، فوقف.. واعتصر ابتسامة عريضة:

- وإذن سترافقان في مجاهل المدينة.. إن حظكما رائع، ذلك أن عملاً متواصلاً ينتظرني طوال الأسبوعين القادمين، وأخشى أن أقصر عن رؤيتكما بشكل كاف..

وهتف له عامر ليقول بأن ضيافة اثنين دفعة واحدة أمر منهك لإنسان فقير يكاد لا يجد ما يأكله، وأنه سوف يكون راضياً لو تبرع له بواحد منهما.. الفتاة الشقراء بوسعها أن تعيش في جو عائلته

وجو أخته اللتين ستفرحان بها فرحتهما بلقاء مواطنة بعيدة.
ولكنه رمى الهاتف دون أن يقول لا أو نعم.. وقالت له أخته:
- إن الفتاة اللندنية لن تترك البيت إلى بيت عامر حتى لو قيل
لها أن تفعل..

وسألها هو:

- لماذا؟ تعتقدين أنها تفضل بيتنا الشرقي العتيق على كل ما
سوف يمنحه عامر الغني لها؟
- كلا، لست أعتقد ذلك، ولكنني أعتقد أن روز لن تغادر البيت
إذا لم يغادره جيمس، إنهما عاشقان!
- هراء فارغ..

- قررا أن يقول لك ذلك اليوم.. لقد قالته لي..

- عشرة أيام فقط أوقعتهما في حب بعضهما؟ أي هراء!
- عشرة أيام فقط، نعم، ولكنهما صرفاها معاً يوماً يوماً، منذ
أبكر الصباح حتى منتصف الليل.. ألسنت تعتقد أنها كانت فرصة
كافية؟

- لا أصدق!

ألا تصدق؟ كم مرة رأيتهما يحدقان معاً إلى شجرة الياسمين
ويتهما مسان في ظلها؟ كم مرة سقاها في كفيه من ماء البركة وكم

مرة رأيته تسقيه؟ أما خطر لك قط أن تصدق حينما تراهما يذوبان في شمس الصباح معاً وهما يتعانقان جالسين فوق خشب الدرج؟ كم مرة زرع الياسمين في شعرها، وكم مرة رأيته تحنو على ياسمينها؟

أنت ما صدقت لأنك ما أردت لكآبتك أن تزداد أمام فرحهما، وحينما قال لك ذلك ببساطة كنت تعرفه، ولكنك ما أحسست بأن كآبتك قد ازدادت أو نقصت.. قلت لنفسك إن هذا من شأن البيت.. وإن هذا يجب أن يحدث.. ثم قالت لك روز:

- أنا أعرف أن ذلك سوف يسبب لك حرجاً أمام والديك.. ولكنك إذا أردت أن تقول لهما ذلك، فقل لهما أيضاً إننا سنتزوج وسأل متعباً:

- وهل ستتزوجان فعلاً، أم أنكما تريدانني أن أكذب؟
- سوف نتزوج فعلاً..

وتزوجا.. أقام لهما في بيته حفلاً صغيراً خدم فيه الضيوف القلائل كالصبي، وودعهما إلى باب بيته حينما انطلقا عائدين إلى بلادهما بعد أيام..

وعاد البيت الكبير يمطر ورقاً ناشفاً تكسره خطوات أبيه الموهنة كلما عبر ساحة الصوان في أبكر الصباح ذاهباً إلى السوق..



- لا تتكلم عن بيتنا! لا تتكلم.

مرة أخرى قلتها بصوت عال وأنا أدخل المفتاح الكبير في قفل الباب الخشبي المنقوش بالمسامير.. كانت العتمة قد أسكتت الشارع إلا من أصوات النوافير المخنوقة التي تثرثر وراء أبواب ذلك الزقاق البعيد.. دورت المفتاح ودفعت الباب ثم دلفت إلى باحة الصوان.. كان الضوء يسيل من نوافذ غرفة أختي فيغسل الباحة بنور كأنه قمر مكتمل.. مشيت بطيئاً فوق الأوراق الناشفة وأحسست بالصوت المتكسر يعبر مطوفاً في عروقي ويموج كأنه النغم.. وقفت: شجرة الياسمين الصغيرة ما زالت تتكئ هناك مسقطة شموعاً صغيرة من الزهر الأبيض، تنشقت عبيرها فافتز في صدري دوامات صغيرة من الحياة. أية رائحة هذه كأنها.. كأنها ماذا؟ أتكون الروح التي يحكون عنها؟ سعدت الدرج فخفق تحت خطواتي كأنه ينبض، لامست الكرة النحاسية في مقبض الباب ثم دلفت إلى غرفتي..

ما كان من المعقول أن أنام: أي عالم ضيق صغير يسلب المرء

نومه.. أي عالم صغير محدود بيقال ومحمر وصديق أحسن ما فيه
أنه أقل سوءاً من البقية؟ أي عالم لا نافذة فيه سوى هذا الصدر
الذي يتنفس رائحة البيت كما تتنفس السمكة الماء؟.. أي عالم
صغير يقف كله ضارباً في وجه بيتنا الكبير؟

ومن شباك غرفتي دلف شعاع الصباح فغسل الصمت بنوع
سحري من النغم.. ما زالت الشمس تتعرف إلى بيتنا أول ما تشرق..
ما زالت شجرة الياسمين تمطر عطرها فتروي صوان الباحة.. ما
زال العصافير تسكن إلى جوار البرتقال لا تطرد ولا تمسّ ولا
تخوّف.. وما زال أبي يهبط سلم الخشب فيخفق تحت خطواته
حانياً.. وما يزال عروسان في الطرف الآخر من الأرض يغتسلان كل
صباح بماء يتدفق من بين أنياب أسد حجري موجود في بيتنا..

بيروت، ١٩٦١

العروس

عزيزي رياض،

لا شك أنك تقول الآن إنني قد جننت، فهذه ثاني رسالة أكتبها لك في يوم واحد، ولكنني في الواقع أكتب لك هذه الرسالة الآن كي أوضح لك أمراً، لقد اكتشفت أنه محض جنون أن أكتب وأقول لك: ابحث معي حيث أنت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة، ويلوح لأول وهلة كأنه مجنون. ماذا يمكن أن تفهم من هذا كله؟ لا شيء طبعاً، فالمرء يصادف في اليوم الواحد، إذا ما سار في الطريق، مئة رجل يحملون هذه الصفات، فأَي واحد منهم تراني أقصد؟

إنني على يقين أنك ستكتشفه بنفسك، فهو شيء آخر، متميز... كيف؟ لا أستطيع أن أقول لك، فأنا نفسي لا أعرف، ولكن يخيل إليّ الآن أنني حين شهدته لأول مرة كان محاطاً بما يشبه الضوء، نعم، كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء، وأعترف لك أنني لم أتأكد

من ذلك تماماً حين استوقفتني لحظة واحدة في الطريق، إلا إنني أكاد أكون متيقناً الآن، أن ذلك الرذاذ المضيء الذي كان يحوط جسده الضخم هو الذي رسّخ صورته في ذهني، وإلا كيف تفسر أنني ما زلت أذكره، وما زال يلح عليّ، من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الإنسان في الطريق كل يوم، ثم يذوبون من رأسه وينعدمون؟

ورغم ذلك فأنا أعرف، هذه اللحظة، أنك ما زلت تعتقد أنني شبه مجنون، فحتى الآن لم يتضح أي شيء، وما زلنا حيث كنا في الرسالة الأولى: ابحث معي حيث أنت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس بذلة خاكية عتيقة، ويبدو لأول وهلة كأنه مجنون.

كل الذي أضفته لهذه الصفات تلك الصفة المعقدة الجديدة: إنه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء!

معك حق، ولكنني أكتب لك هذه الرسالة الثانية في يوم واحد لتعرف القصة بكاملها، ذلك أنني رأيت أنه صار من حقك، وقد طلبت منك مشاركتي في البحث عنه، أن تعرف ما أعرفه.

لست أذكر بالضبط متى رأيته لأول مرة، ولكنني أذكر تماماً كيف رأيته: مثل إنسان ضيّع شيئاً، كان يسير محنياً بعض الشيء،

بكفين مفتوحتين متحفزتين، وعينين تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثان عتيقان، لقد بدا لأول وهلة وكأنه مجنون، وحين مرّ بي نسيتَه ولم أذكره إلا حين رأيته مرة ثانية: اقتلعتني عيناه فجأة وأحسست نفسي أطوف فوق موجة تستعصي على الرؤية، ولست أدري الآن ما إذا كنت أنا الذي ذهبت إليه مسوقاً بذلك النداء العميق المنبعث من عينيه كتيار لا يقاوم، أم أنه هو الذي جاء إليّ، وعلى أي حال فقد وضع كفه الكبيرة على كتفي وسأل:

- هل رأيتهَا؟

- رأيت ماذا؟

- العروس!

وطبعاً تيقنت لحظتذاك أنه مجنون، وأن ما انتابني أمام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي إنسان يجد نفسه هدفاً لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول، ولذلك اخترت الهروب الأسهل فقلت له:

- كلا، لم أرَ العروس...

وعندها سقطت يده من تلقائها إلى جنبه واستدار، إلا إنني سمعته يقول، كأنما لنفسه:

- كلكم تقولون هذا، منذ عشر سنوات.

وحين ابتلعه الزحام، يا رياض، شعرت بأن جسده الضخم كان محاطاً بذلك الشيء الذي يشبه الغبار المضيء، كما رسمه فنانون عصر النهضة حول جسد الإله وهو يقدم عونه للفقراء، على بطاقات الأعياد التي كنا نتلقاها معاً.

وعبثاً حاولت اللحاق به: إن مثل هذه الأمور لا تحدث إلا كلمح البصر، لقد نقتب الشارع صعوداً ونزولاً، قابلت مئات من الرجال الذين يشبهونه تماماً، ولكنه هو نفسه كان قد اختفى! عنه، أبحث الآن، وعنه أيضاً أطلب منك مشاركتي البحث، أعرف أنك تبعد عن هنا أكثر من ألف ميل، ولكن ما الذي يمنع ذلك الرجل أن يسير، محاطاً بذلك الضوء المجهول أكثر من ألف ميل وهو يبحث عن العروس؟



قبل أن أسألك سألت غيرك، لم ألجأ إليك إلا لأنني، منذ رأيته، ألجأ إلى كل من أعرفه، أستوقف كل من تربطني به أدنى علاقة وأسأل عنه. وأصارك القول يا رياض، لقد مضى بي الأمر إلى أبعد من ذلك.

ذات ليلة قلت لنفسني: إذا كان ذلك الرجل قد دأب على سؤال الناس عن العروس منذ عشر سنوات، كما قال، فإن الشيء المؤكد

تماماً أن كثيراً من أولئك الناس الذين سألتهم، ينتباهم الآن ما ينتابني. وكنت أسير ذات يوم في الطريق حين التقت عيناى عابراً لا أعرفه، ودون أن أعرف ما الذي أنوي عمله مضيت إلى الرجل فاستوقفته، وضعت يدي على كتفه وسألته:

- هل رأيت العروس؟

سَمَّني مجنوناً ولكن هذا الذي حصل، وقد استطعت، عن هذا الطريق أن أعرف الكثير عن الرجل، وعن «العروس» الضائعة، إلا إنني ما زلت غير قادر على التخلص من تلك القسوة المجهولة التي تدفعني نحو عيون العابرين لأسألهم عن العروس الضائعة.

الآن دارت الدورة، أو أنا الذي درتها، لست أدري، ولا بد من أن أعود إلى نقطة البدء، إلى ذلك الرجل المحاط بما يشبه النور، والذي من شفتيه وعينييه وتحت كفه الثقيلة، سمعت ذلك السؤال لأول مرة في حياتي، نعم، يا رياض، لا بد لي من رؤيته.. فلدي أخبار جديدة عن العروس!



كان من قرية «شعب» شاباً لم يكن قد ضيع شيئاً بعد، ولكنه

لم يكن عند ذاك قد وجد أي شيء أيضاً.

لا بد أن قصته قد بدأت في يوم ما من أيام حزيران الأولى عام ١٩٤٨، كان القتال الدموي قد استمر دون انقطاع طوال أكثر من ستة أشهر، وكان هو - وأنا ما زلت أجهل اسمه - سيّد الذين يندفعون إلى القتال، هجوماً كان أم نجدة أم دفاعاً، إلا إنه كان يشترط أن يعرف موعد العمل قبل بدئه بساعتين على الأقل، كي يكون أمامه متسع من الوقت للتفتيش على من يقبل أن يعيره سلاحاً، بندقية خديوية، أو إنكليزية، أو حتى قبلة يدوية.

وكانت الأمور، على هذه الشاكلة، مقبولة عند كافة الأطراف، فغالباً كان يأخذ معه إلى الرجل الذي ينوي أن يستعير منه سلاحاً رقيقاً يتعهد أمامه بأن يعيد السلاح إلى صاحبه إذا ما مات صاحبنا أثناء العمل، كان حريصاً على أن يتعامل معاملة مصارف محترمة، رغم أنه لم يشهد في حياته مصرفاً محترماً أو مصرفاً، وهكذا فإنه لم يواجه، طوال تلك الشهور الستة، مشكلة حقيقية في هذا المجال، ولذلك لم يفكر بالحصول على سلاح خاص، وربما امتنع عن التفكير بالحصول على ذلك السلاح الخاص بسبب عجزه عن شراء سلاح.

لم أعرف بعد من الذي زرع في رأسه، في أحد تلك الأيام الأولى من حزيران، أن عليه الحصول على سلاح، وكان هذا الرأي سليماً

تماماً، فقد تركز القتال بصورة جادة في الجليل، وألقى العدو ثقله هناك، وابتدأت أنهار المهاجرين تسيل في التلال نحو الشمال، وبدا كل شيء وكأنه يقف على الحافة.

لا شك أنه كان أصعب من أن يتردد كثيراً، فقبل أن ينتهي الأسبوع الأول من ذلك الحزيران كان قد عقد عزمه بصورة ليس بالوسع زحزحتها، لقد سلم سلاحه في معركة لم أهتدِ إلى اسمها بعد لأحد رفاقه ومضى يزحف تحت غيوم راعدة من النار، كان على يقين بأن بعض جنود العدو في خطوطهم الأمامية قد قتلوا، وأنه لو انتظر إلى نهاية المعركة لفقد فرصته، كان يعرف أنهم يسحبون جنودهم بالحبال بعد انتهاء القتال.

وقد استطاع أن يصل بالفعل إلى الخنادق المحروقة، كانت العتمة ثقيلة، ولكنه أسقط نفسه في إحدى الحفر، وبأسنانه فك يد القتل عن بندقيته، وتفحصها هناك على ضوء الحرائق والانفجارات، ومضى عائداً إلى رفاقه.

وسرى الخبر في كل القرى سريان النار، ليس لأنها كانت الحادثة الأولى من نوعها، ولكن لأن البندقية التي جاء بها كانت بندقية نادرة.

لن أطيل عليك كثيراً، لقد استدعي في اليوم التالي إلى القيادة

التي كانت تعسكر في قرية مجاورة، كان الضابط قد سمع عن البندقية، وحين شهدها أمامه بين كفي الرجل فتح عينيه على وسعهما:

- هذه مرتينة تشيكية!

وانحنى الواقفون ينظرون إلى البندقية الجديدة والتي كان فولاذها يلتمع تحت قنديل الغرفة: كان ذراعها ذا لون بني كامد، وكان حزامها الخاكي جديداً تماماً، مجدولاً بعناية لا تصدق، وكان مشطها الكبير يعلو زنادها كأنه التاج.

وجاء صوت من طرف الغرفة الأخرى:

- يبدو أنهم تلقوا شحنة سلاح جديدة من الشرق، القيادة يجب أن تعرف ذلك.

وهز الضابط رأسه موافقاً على ذلك الرأي وقرر:

- يجب أن آخذ هذه المرتينة إلى القيادة.

تستطيع يا رياض، أن تقدر ما حدث: لقد تمسك صاحبنا ببندقيته ولكن الأوامر، كما تعلم، كانت أقوى: ألا يصدقونكم دون أن تأخذوا البندقية؟ ألا تستطيعون تقدير قيمة الوقت؟ إذا شئتم ذهبت أنا مع البندقية!

ولكن ذلك كله لم يكن يجدي، وكى يطمئن على بندقيته أقسم

له الضابط أن يعيدها له، بأمشاط إضافية، خلال يومين.
ومر اليومان، ومر الأسبوع، في ذلك الشهر الذي تتناول دقائقه
ويموت ناس وتسقط بلاد وتحترق مزارع وتولد في كل دقيقة حادثة
جديدة: من مركز القيادة إلى الدار، ومن الدار إلى مركز القيادة،
ضارباً في الوعر والشوك، انتظر الآن، وتعال غداً، ولكن الأحداث،
كما لا شك تذكر، في ذلك الشهر الحاسم، لم تكن لتنتظر.
وقد تساقط فوقه حدثان في يوم واحد: في الصباح قيل له إن
الضابط قد نقل مركز قيادته إلى الشمال حيث لا يعرف أحد، وفي
المساء تلقت «شعب» الضربة الأولى، وحرثت قنابل المورتر بيوتها
الطينية، وأحرقت أغراس الزيتون، في لحظة كانخطاف البصر.
من الذي سيعيره بندقية في ذلك الطوفان الذي لا تنفع فيه إلا
البندقية؟ هي وحدها التي كانت تستطيع أن تحمل الإنسان عبر
ذلك الموج، إلى شاطئ النجاة أو إلى شاطئ موت شريف، ولذلك
لم يكن أمامه في ذلك الطوفان الغارق إلا.. إلا ماذا؟ إلا الجنون،
طبعاً، إذا صدقت أنه لم يكن ليختار الفرار.

ولكنه لم يقبل الجنون ولا اختار الفرار. وكان الموت هو الذي
تبقى له، ولكن حتى الموت خسره هو الذي صرف كل أيام الحرب
مقاتلاً في أول صف، بسلاح معار، بين أسنان موت حقيقي، جلس

هناك في «شعب» على حجر، وسط الساحة، ينظر إلى البيوت تحترق، وإلى الرجال يموتون، وإلى أهله ينسربون مع من انسرب تحت ظلمة ذلك الليل، إلى حيث لم يعرف، ولا يعرف حتى الآن. وقد شاهدوه حين احتلوا «شعب»، وحسبوا كما حسبت أنا أنه مجنون، فضربوه بأعقاب البنادق كي يغذ الخطى في الوعر إلى الشمال.

في طول ما تبقى من الجليل مضى ليل نهار يبحث عن بندقيته: من قرية إلى أخرى ومن مقاتل إلى آخر، ينقب وجوه الناس والأشياء متعقباً أخبار البندقية التي لم يشهدها إلا ساعات، والتي كانت محشوة بالرصاص ولكنه لم يطلق منها رصاصة واحدة.

أنت لا تعرف ما الذي حدث في «شعب»، قليلون هم الذين يعرفون ذلك، ولكنه شيء ضروري أن تعرف ما الذي حدث هناك كي تدرك حقيقة القصة. لقد مضى هو صعوداً، في قيظ لا مثيل له، إلى البروة، ومن هناك إلى مجد الكروم، إلى البعنة، إلى دير الأسد، إلى كسرا، إلى كفر سميع، متعقباً أخبار بندقيته خطوة، خطوة، من قصة إلى أخرى ومن رجل إلى آخر، وحين وصل إلى ترشيحا جاءته أخبار جديدة من «شعب»: إن الأربعين مقاتلاً الذين تبقوا من رجال «شعب» ذهبوا إلى قيادة جيش الإنقاذ في الشمال ليعرضوا أنفسهم

كمقاتلين في صفوفه، وحين علموا أن خطة زحف الجيش لن تمر في «شعب» عادوا إلى هناك، وفي ليلة واحدة انقضوا على قريتهم من جديد، واسترجعوها.

ستبدو لك الحادثة غريبة ولكن هذا هو ما حصل، لقد عاد الأربعون مقاتلاً فاسترجعوا قريتهم المحروقة وتعقبوا عساكر العدو إلى قرب مفرق «الدامون»، ودفعوا ثمن ذلك عشرة رجال.

لقد حدث ذلك، يا رياض، في بقعة محاطة بالعدو من كل جانب، واستطاع الرجال الثلاثون أن يبقوا وراء جدران قريتهم المهدمة يردون الهجمات المتكررة ليلاً نهاراً، ولكنه هو، في ترشيحا، كان يشم بندقيته قريبة كأنها في متناول يده، واعتقد أنه لو انتظر يوماً واحداً فقط لاستطاع استرجاعها، ولعاد معها، إلى «شعب».

قلت لك إن الأحداث لا تنتظر، ففي اليوم التالي اكتسح العدو «شعب» مرة أخرى، وفر الرجال الذين فقدوا خمسة من مقاتليهم، إلى التلال المجاورة حيث يستطيع ابن البلاد أن يضيع قطيع ماعز. وقيل له يومها، إن بندقية تشيكية جديدة شوهدت مع رجل عجوز في قرية صغيرة تقع على بعد ساعتين إلى الشمال من ترشيحا، وقد ذهب إلى هناك في الليل، وهناك قيل له، وهو يكاد يفقد وعيه، إن مقاتلي «شعب» الخمسة والعشرين قد انحدروا

إليها تلك الليلة بالذات وقاتلوا ببنادقهم وسكاكينهم حتى الصباح وإنهم، مرة أخرى، استرجعوا قريتهم الممزعة، وتمركزوا وراء الركام على مداخيلها وفقدوا ثلاثة رجال..

وراء أخبار البندقية، من باب إلى باب قيل له إن العجوز الذي شوهد يحملها قد مضى، في الليل، وتسلق الهضبة ذاهباً إلى الجنوب، ربما ليلتحق بالمقاتلين الذين بدأوا يتجمعون إلى الجنوب من ترشيحا بانتظار هجوم حاسم. ودون أن يضيع لحظة تردد واحدة كر عائداً إلى ترشيحا، فرجال «شعب» الثابتون وراء استحكامات الدمار في قريتهم الصغيرة المعزولة ينتظرونه. ثم إنها، لو تعلم، قريته التي لم يستطع، حين اجتاحت، أن يطلق في سبيلها رصاصة واحدة. ولكن أخبار «شعب» سبقتة إلى ترشيحا، حيث لم يستطع أن يعرف أخبار البندقية: لقد فوجئ المقاتلون المنهكون بهجوم ثقيل ماحق، وفقدوا وهم يتراجعون سبعة رجال، وحملوا معهم أربعة جرحى، واختفوا في التلال.

وفيما كان هو على حافة الجنون يتسقط، كما لو أنه بين نصلي مقص، أخبار بندقيته من جهة، وأخبار «شعب» من جهة أخرى، انحدر من تبقى من مقاتلي تلك القرية الصغيرة، بعد ساعتين من تراجعهم، واكتسحوا القرية مرة ثالثة مثل لمح البصر، ومرة ثالثة

أيضاً تمركزوا فيها بعد أن ألحقوا خسائر حقيقية بالعدو وغنموا مما خلفه سلاحاً وزاداً.

لست أدري من الذي قال له في ترشيحا إنه لو استطاع العودة إلى «شعب» بكفيه العاريتين، لاستطاعوا هناك تزويده بالسلاح الذي يريد، ولست أدري إن كان هذا القول قد راقه أو لا، ولكن الذي أدريه هو أنه، تلك الظهيرة القائظة، شاهد بندقيته على كتف رجل في الساحة.

وكما تمسك بها يوم انتزعها بأسنانه من قبضة القتيل شدها إليه وهي لما تزل معلقة على كتف الرجل، وحين استدار هذا الأخير، مذهولاً، وشهد أمامه ذلك الرجل الطويل الصلب ذا النظرات القاسية والوجه المنهك، اكتشف، أغلب الظن، أنه على أبواب عراق، فثنى كوعه حول حزام البندقية، ومد ذراعه الأخرى لتحول دونه ودون العملاق.

أما هو فقد كان غير قادر على الكلام، قيل لي إنه كان يبكي وكان يرتجف كالمحموم، لقد مضت شفتاه الجافتان تتمتان كلاماً ليس بالوسع فهمه، وأمامه كان الرجل الآخر بلحيته الدقيقة وعينييه الغائرتين قد عقد العزم على المضي بالعراك إلى إحدى نهايتيه.

- هذه مرتينتي!

قالها بعد جهد لا يصدق بصوت مبحوح محشرح وطفقت
عيناه تحدقان إلى الرجل العجوز كأنهما تنتظران الاعتراف، إلا إن
العجوز الصعب صرخ بوجهه:

- مرتينتك أيها النصاب؟ لقد دفعت ثمنها من حلالي قبل
يومين فقط!

وتساءلت العينان في وجهه، فقد كان مستحيلاً، بعد، أن يتكلم،
وجاءه الجواب:

- من حلالي، اشتريتها أمام خمسة شهود من ضابط باعها لي،
وهو يتجه إلى الشمال، بمئة جنيه.

وارتخت قبضته عن جسد البندقية إلا إنه لم يتركها تماماً، وبدا
أنه، في لحظة واحدة، سيتهاوى ولكنه بذل مزيداً من الجهد وهمس:
- أريدها لأعود إلى «شعب».

- «شعب»؟ لقد احتلها اليهود مرة أخرى قبل قليل.
ترك البندقية، فضمها العجوز إلى صدره بقوة وتراجع خطوتين،
وحين اطمأن تماماً إلى أنه لن يفقد سلاحه سأله:

- هل كانت هذه المرثينة لك؟
وهز رأسه يائساً إلى النهاية.

- دفعت بها مئة جنيه مهر ابنتي الوحيدة، لقد رفضت كل

عمري أن أزوجها لذلك العجوز النتن، ولكن ماذا تريدني أن أفعل الآن؟ لقد دفع مئة جنيه، دفعتها بعد ربع ساعة فقط ثمناً لهذه التشيكية.

وبهدوء استدار كشيء، محطم، ومضى. كانت تلك هي آخر مرة شوهد بها في ترشيحا وليس يدري أحد إلى أين ذهب، وعلى أي حال فإنه لو ذهب شمالاً لكان من المؤكد أنه سمع، قبل أن تتيسر له مغادرة الحدود، أن رفاقه العشرة الذين تبقوا من مقاتلي «شعب» قد هبطوا التلال بعد يومين، وبسلاحهم اليسير استرجعوا تلك القرية الصغيرة المهدامة، مرة رابعة.



لم اهتمد بعد إلى اسم العروس التي بيعت ثمناً للبندقية، ولم أعرف بعد ماذا فعل العجوز بتلك البندقية الجديدة، وكذلك فأنا لا أعرف كيف انتهت قصة «شعب»، وكيف انتهت أخبار أولئك الرجال الأربعين الذين ذابوا بالتدرج، كما تذوّب النار قطعة دهن.

أهو الرجل الوحيد الذي تبقى من مقاتلي «شعب»؟ ربما، لست أدري في الواقع، ولكن يخيّل إلي أن هذا هو السبب الذي جعل منه رجلاً غريباً ينتابه إحساس ثقيل بأنه ما زال يبحث عن بندقية ضائعة

ليلتحق بالرفاق الذين كانوا ينتظرونه في القرية المهدامة.
ولكن يا عزيزي، رياض، لماذا لا تفتش معي عن ذلك الرجل؟
إنه رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس بذلة
خاكية قديمة، ويبدو وكأنه محاط برداذ مضيء، ويلوح لأول وهلة،
حين يستوقفك ليسألك:
- هل رأيت العروس؟
يلوح كأنه مجنون.
ابحث معي عنه، حيث أنت، فلدي أخبار جديدة عن العروس..

بيروت، ١٩٦٥

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق / برقوق نيسان / الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبوي

جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني

قصص كنفاني القصيرة، بنبضها الحاد تريد أن تكون مرايا. إنها مرايا يتقاطع فيها الذاتي بالموضوعي. كأن مرض المؤلف المزمّن (أصيب كنفاني بداء السكري في شبابه المبكر) يأتي ليشكل خلفية المأساة التي يعيشها الوطن. لذلك تأتي القصص كمرايا، كصور للقلق والبحث والخوف والموت. كلوحات تتداعى فيها الصورة الإنسانية أمام مشكلاتها، لا تطلب الحلول، لكنها تحاول أن تكون جزءاً من مسيرة البحث عن الحل.



9789963610952